وجـــــــوه

قصص

مصطفى نصر

رئيس اتحاد الكتاب

أ. فاروق خورشيد

مقرر لجنة النشر

أ. أحمد الشيخ

تصميم الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

سيّد، ملك السودان

كان أسود الوجه وجسده قوى، طويل وعريض، وشعره أكرت. يضحك كثيرًا وبصوت مرتفع يسمعه سكان الحارة وهم داخل بيوتهم. يمازح أصدقاءه بصوت مرتفع. يناديهم بأسماء غاية فى السخافة، يخجلون منها، ويغضبون منه لأنه يناديهم بها.

كان يخطف الطاقية من فوق رؤوس الباعة الجائلين الذين يدخلون الحارة ويجرى بها. وإذا ما جاء صاحبها لأخذها، يرميها لآخر.

كان أطول من والده ـ محمود ـ ومن أخوته الثلاثة الآخرين. وهو الوحيد بينهم الذى جاء أسود اللون مثل أمه (ويقولون إنه شديد الشبه بجده ـ والد أمه ـ الذى لم يأت من الصعيد ، ومات هناك. وإن ذلك الجد كان عبدًا مملوكًا فى سوهاج. لذا ، إذا ما تشاجرت امرأة مع أم سيد، تعيّرها المرأة بأبيها العبد الأسود).

يعمل محمود ـ والد سيد ملك السودان ـ زبالاً فى حى سبورتنج.

وسيد يعمل معه مثل سائر إخوته لكنه دائم الاختلاف مع أخويه، مرسى ومرزوق. أما الآخر - فهمى - فهو فى سن لا تسمح له بمزاحمتهم والاختلاف معهم.

قسم الزبالة الذى يمتلكه محمود فى سبورتنج صغير جدًا. عدة شوارع تبدأ من كورنيش البحر حتى الترام، وهم كثر. بينما هناك زبالون بجواره، رقعة الزبالة التى يمتلكونها ويستفيدون من دخلها كبيرة جداً. وأسرتهم صغيرة. رجل وابنه، أو ابنان فقط.

وقد اضطر محمود أن يبحث لنفسه عن مورد رزق آخر. فما يأتى به قسم الزبالة لا يكفى. خاصة أن الولد الكبير مرسى قد أنجب ومصاريفه زادت، وتوصل محمود إلى الحصول على مخلفات مصنع غزل قريب من قسم الزبالة التابع له.

يملأ عربته ذات الجدران الخشبية العالية بخيوط كثيرة من كل لون ونوع. ويأتى بها إلى الحارة. يفك حماره ويخلع باب العربة المعلق بمفصلتين. ثم يقلب العربة فى الحارة. وينحنى الرجل بقامته الرفيعة. وتنحنى حماته - وهى امرأة عجوز تشاركه عمله، وينحنى الأولاد جميعاً. يفرزون الخيوط كل نوع على حدة، ثم يبيعون الأنواع إلى تجار الخيوط فى شارع ايزيس.

أولاد الحارة يعشقون الطائرات والدبابير الورقية التى تحتاج إلى خيوط لكى تطير فى الجو وتحلق. فيسرع الأطفال المتراصة أمامه. يخطفون قطعة خيط ويجرون بها، فيجرى محمود خلفهم.

ولا يتركهم حتى لو دخلوا إلى بيوتهم، فيقف أمام البيوت ويصيح ويلعن. لذا كان حضور عربة الخيوط معناه أن محمود سيتشاجر طوال الوقت. فأهل الأولاد سيدافعون عن أولادهم وسيردون شتمه لهم، وهكذا.

سيد ملك السدوان، والحق يقال، لم يكن مرتاحًا لما يحدث أمامه. وهو الوحيد - من بين أبناء محمود الذى لم يشارك فى فرز أنواع الخيوط. فيكتفى بجلسته فوق قهوة أبو دومة. أو يقف بجوار أحمد البقال على ناصية الحارة. وإذا ما أمسك والده بطفل خطف خيطاً، يُسرع هو لإنقاذه من بين يدىّ والده. ولو كان الأمر بيده لأعطى كل أولاد الحارة ما يريدون من خيوط.

لكن الرجل لا يمكن أبدًا أن يوافق. فهو يبيع الخيوط بمبلغ يعينه على الإنفاق على هذه الأسرة.

يقف سيد مع أصدقائه فوق الجبل الذى يعلو الحارة. يحكى لهم عن مغامراته فى قسم الزبالة الذى يمتلكه والده: أحبته فتاة جميلة جدًا. إذا ما شربت يمكن أن ترى الماء وهو نازل فى رقبتها من شدة بياضها. والدها محام مشهور وله مكتب فى المنشية. البنت مغرمة به. وهو يتعالى عليها ويصدها. ولم يبل ريقها بكلمة. حتى جاءته إلى الحارة. وينظر سيد عمن يؤكد قوله:

- محدش شاف بنت حلوة دخلت بيتنا؟

فيجيبه أحدهم جادًا:

- أيوه شفت.

- أهى . هى دى.

أو إذا ما وجد شقيقه الصغير فهمى . يصيح فيه:

- مش كده يا ولد؟

ويجيب فهمى مضطرًا:

- أيوه . جاته بنت جميلة قوى وكلنا شفناها .

ويكمل سيد قصته مع الفتاة المسكينة المولعة به والمجنونة بحبه. هو لم يستجب لها بل قال:

- مقدرش أسيب أبويه وخواتى وأعيش معاكى. هما صحيح دايماً يتعاركوا معايا . إنما برضه خواتى.

وبكت البنت. وركعت على ركبتيها وأمسكت يده متوسّلة. ولما لم تجد منه فائدة أرسلت والدها المحامى المشهور ليتوسل إليه. فالبنت مرضت وحالتها أصبحت عبرة. وستموت كمداً من صده لها. فقال سيد لوالدها:

- أنا والدى أحسن منك. هو زبال، صحيح، لكنه أحسن منك.

وينقطع الحديث عن الفتاة لقدوم وافد جديد. أو لحدوث حادث مفاجىء يجعلهم ينصرفون عن هذه الحكاية، ولولا هذا لما انتهى سيد من ذلك الحديث أبدًا. فهو لديه قدرة على اختلاق الأحداث.

وحكى يوماً عن والده عندما تقابل مع الملك فاروق. أجل فاروق ملك مصر والسودان.

كان محمود يسوق عربته. عربة الزبالة. وفاروق يقود سيارته بنفسه. اختلفا على من يسير قبل الآخر. ومحمود والده عنيد. وإذا ما صمم على شيء فهو لابد فاعله. ويبحث سيد عن فهمى أخيه الأصغر، مستعينًا به:

- مش كده يا ولد؟؟

ويجيب فهمى مؤكدًا:

- أيوه أبويه دماغه ناشفة.

المهم أن محمود والده أصر على أن يسير قبل الملك فاروق. وقال له:

- لو كنت أنت ملك، فأنا مثلك ملك. فلدى قسم زبالة. ولدى أربعة أولاد.

وأعجب الملك فاروق بشجاعة الرجل. فعرض عليه أن يكون ملكاً على السودان. لكن والده اعتذر وفضل أن يظل زبالاً كما هو. ومن يومها أطلقوا على سيد: ملك السودان.

العمل فى قسم الزبالة لا يحتاج إلا لمحمود وولد واحد من أبنائه الأربعة. بل إن الولد فهمى الصغير ينفع ويسد الحاجة. لكن الباقين

أين سيذهبون. وليس لديهم عمل سوى الزبالة. لذا كانوا يتشاجرون ويختلفون.

وتشاجر سيد ـ ذات مرة ـ مع أخويه، وكان ينتظر من والده أن ينحاز إلى صفه، خاصة أنه كان على حق لكن الرجل خذله وانحاز لأخويه، فقرر سيد الانتحار. أجل. أعلنها صريحة أمام كل أهل الحارة. إنه سينتحر ليريح نفسه ويريحهم منه. وفكر مسرعاً فى الأداة التى سينتحر بها. فلم يجد سوى القفز من الشرفة، وصعد فعلاً إلى شقتهم (وهى فى الحقيقة جزء من الشقة: حجرتان، واحدة يسكنها محمود مع كل أبنائه، والأخرى يسكنها مرسى ـ الابن الأكبر ـ مع زوجته التى جاء بها من الصعيد. وهناك دورة مياه مشتركة مع ثلاث أسر تشغل كل أسرة حجرة منها).

المهم أن سيد دخل الشرفة. وصاح بأعلى صوته:

ـ سأنتحر يا خلق الله، وسأشهدكم على ما يفعلونه معى.

وأسرعت أمه باكية منتحبة:

ـ اعقل يا سيد.

وخرجت النسوة من الشرفات. وأطلت الرؤوس من النوافذ تتابع ما يحدث، وأسرع رواد قهوة أبو دومة القريبة، وقفوا أمام الشرفة وصاحوا:

ـ اعقل يا سيد حاتموت كافر.

ـ اعمل ايه ما هم كفرونى.

وأسرعت أخته المتزوجة فى بيت قريب. شدته من ملابسه لتدخله. لكنه دفعها إلى خارج الشرفة. وأعلن أنه لن يرجع عما أراد. ولابد أن ينتحر.

وصاحت امرأة من الشرفة المقابلة:

ـ أخزى الشيطان يا سيد يا ابنى وادخل جوه.

ـ لا ياحاجّة. دول ناس ما يتعشروش.

لكنه فوجىء بالغسيل أمامه. كان قد جفّ وهفهف مع تحركات الهواء فى الحارة. وانشغلت أمه بشجاره مع أخويه. ونسيت أن «تلم» الغسيل. فكيف يمكنه القفز من الشرفة والغسيل منشور أمامه. بعضه يصل إلى نصف الجدار.

أخذ سيد يلم الغسيل وهو يصيح:

ـ حلمّ الغسيل وبعدين أرمى نفسى.

وأمسك بالمشابك ورماها داخل الشرفة. وأخذت أمه منه الملابس ورمتها فى الداخل، قطعة وراء قطعة. بعد أن انتهى من لم الغسيل، واجهته مشكلة أخرى. ألا وهى «حبال الغسيل» المشدودة والممتدة من أول الشرفة إلى آخرها. فهى ستعوقه عن القفز لاشك.

فتح باب الشرفة مندفعاً داخل الشقة فصرخت أمه:

- كده يا سيد . عايز ترمى نفسك وتموت.

دخل المطبخ ، وهو جزء من الصالة الواسعة والكبيرة، أخذته أمه عنوة من باقى سكان الشقة ووضعت فيه مائدة قديمة تشعل فوقها وابورها. وتضع حللها، ثم تدخلها كل آخر ليل خشية أن يسرقها أحد.

أمسك سيد بالسيكن الكبير واندفع ثانية إلى الحجرة. فصرخت أمه. ظنته سيذبح به أخويه.

وترك والده شيشته وصاح:

- سيب السكينة يا ولد.

لم يقدر عليه أحد. فدخل الشرفة وأخذ يقطع الحبال فى أناة وعلى أقل من مهله. حتى فترت همة المتابعين له. فعادوا إلى جلستهم فى قهوة أبو دومة.

وبعد أن انتهى من قطع الحبال، رماها إلى الحارة وبقى وحده فى الشرفة. أمه فى الخارج مع أخته ووالده. يتحدثون فى أمور أخرى غير حكاية محاولة انتحاره هذه. وأخوته بعدوا عنه حتى لا يتشاجر معهم وهو لا يجد من يهدىء روعه.

«هكذا هو منذ أن ولد. ليس له أحباب . الكل تركه وشأنه».

فصاح باكياً : عايزنى أموت كافر يا ظلمة؟!

وعاد إلى الشقة مقررًا أن عملية الانتحار قد تأجلت إلى موعد آت.

قصة السؤال

ـ وما ذنب الولد؟

ـ هذه الأمور ليس فيها نقاش.

لم يتمالك يسرى نفسه، فصاح فيها:

ـ لقد تعبت من آرائك الغريبة هذه الأيام.

ـ لقد أراد الله هذا، ولا أملك إلا أن أطيع.

ـ أى طاعة هذه، إنه ولدنا فكيف نتخلى عنه؟!

حينذاك دخلّ الولد تامر مبتسماً:

ـ أمى. أين كنت؟

ثم أسرع إليها فرحاً:

ـ إننى أنتظرك منذ الصباح.

أسرعت أنصاف بشد النقاب فوق وجهها ولاذت بالصمت.

يحس يسرى بالارتعاش، أشياء كثيرة داخله ، تؤرقه. كلمات كثيرة يريد أن يقول لها، لكن وجود الولد يمنعه.

أسرع تامر ناحية أنصاف، أمسك بيدها فسحبتها منه مسرعة.

- منذ أن ارتديت النقاب وأنت تخرجين كثيراً.

لمس يدها، فابتعدت عنه، ويسرى يتابع هذا وعضلات وجهه تتحرك فى عصبية من الغيظ. وهى تململت فى وقفتها.

- ما الذى يغضبك منى؟

تابعته بعينيها من خلف النقاب. ثم أسرعت إلى حجرتها وأغلقت بابها خلفها. قال تامر:

- لماذا تبتعد أمى عنى؟

أسرع يسرى إليه، لمس شعر رأسه الناعم:

- أمك مريضة هذه الأيام.

صاح الولد فزعاً:

- مريضة؟! ماذا بها؟

ضمه يسرى لصدره:

- لا تخف . هيا بنا نخرج.

لم تنجب أنصاف أطفالاً، لا يدرى أحد من السبب، هى أم زوجها يسرى؟

أهل الحى الذي كانا يسكنانه يعرفون هذا عنهما، يشاهدونهما وهما يسيران، تضع يدها فى يده. تكاد تستند عليه فى السير. ويعرفون أنهما يخرجان - هكذا - للذهاب إلى الطبيب.

أهل الحى يعرفون أيضاً محروسة، المرأة الحامل التى مات زوجها الشاب على أثر حادث أليم أدى إلى اكتئابها ومرضها حتى صارت جلداً على عظم. مما أدى إلى دهشة الناس هناك، فكيف استطاع ذلك الجنين أن يصمد ويتماسك ويبقى فى بطنها رغم كل ما حدث لها.

خرجت امرأة تسكن فى حجرة مجاورة لحجرة محروسة ولولت وضربت على صدرها معلنة موت محروسة. وردد البعض هناك: «ارتاحت من اكتئابها ومرضها وأساها على الحبيب والزوج الذى ضاع فجأة. قام أحد سكان الحى بكل لوازم الجنازة. وأراد أن يقيم صواناً كبيراً. لكن البعض قال له:

- ابنها اليتيم أحق بهذه الأموال.

واقترح مقترح - لا يذكره يسرى الآن - بأن الولد الصغير الذي جاء قبل موت أمه بيوم واحد أحق به الأستاذ يسرى والست أنصاف لأنهما لا ينجبان و «نفسهما» فى الخلفة.

تردد يسري أول الأمر في قبول المولود. لكن أنصاف فرحت وأسرعت إلى حجرة محروسة فوق السطح حيث بعض الجارات

يقمن بلوازم الطفل. فواحدة أرضعته من صدرها . وأخري ألبسته ملابس ابنها القديمة. قالت أنصاف:

- أريد أن أري الطفل.

(يرددون فى الحى أن الطفل الذى ليس له فى الدنيا سوى يومين.

توقف عن الرضاعة، ورفع عينيه وأطال النظر إلى أنصاف. وأن ذلك جعلها تزداد تعلقاً به. فأخذته إلى شقتها) وكتبت اسمها فى شهادة الميلاد على أنها أمه. وكذلك فعلت مع اسم الأب.

وكبر الطفل بين أحضان أنصاف. كانت تبكي إذا ما ارتفعت حرارته. فتضمه لصدرها جزعة:

- يا حبيبى يا ابنى .

فإذا ما رضع وشبع . يصمت وكأنه قد تخدر. فتضمه لصدرها وتسرع مهرولة - أحياناً - دون شبشب فى قدميها. فتدق أبواب جيرانها فى الدور الأسفل:

- الولد لا يتحرك.

وتأخذه الجارة منها. فتربت على ظهره. فيتجشأ الولد ويبكى ويتحرك.

ألحت أنصاف على زوجها ليتركا الحى الذى يعلم أن تامرًا ليس ابنهما. ويسكنا حيًا لا يعرفهما فيه أحد. ووافق يسرى بعد أن

أحس بأنها محقة فيما تقول. فالأولاد قد يعرفون من أهلهم. ويخبرون تامرًا بطريقة أو بأخرى.

لقد أصبح تامرًا جميلاً. قامة مديدة مع قوام ممشوق. وشعر مسترسل. كما أن انصاف تأتى له بأغلى الملابس وأجودها. فقد كان الولد قدم الخير على أنصاف ويسرى. فاغتنى يسرى بعد أن ترك وظيفته وعمل فى التجارة.

يسرى يسرع بسيارته مخترقاً «طريق الحرية». لا يدرى إلى أين سيذهب. إنه يقترب الآن من «ساعة الزهور» بالشلالات. كثيرًا ما «تصوروا» (هو وتامر وأنصاف) أمامها. كانوا فى وئام. أسرة مطمئنة سعيدة. إلى أن حدث ما حدث.

ذهب يسرى مع انصاف إلى أحد المساجد: قابلا الواعظ المشهور وتحدثا معه.

كثيراً ما ذهب يسرى معها إلى المساجد: السيدة والحسين فى القاهرة والسيد البدوى فى طنطا. والدسوقى فى دسوق. فى كل مرة كانت انصاف تبتهل إلى الله فى خشوع طالبة أن يحمى زوجها وابنها وأن ينجحه فى المدرسة. لكن هذه المرة بُهرت بالواعظ وشاركت أتباعه الكثيرين إعجابهم به.

تغيرت انصاف شيئًا فشيئًا. أصرت على ارتداء الحجاب. وتابعت دروس الواعظ للنساء. لم يفتها درس واحد منذ أن قابلته.

فى أحد هذه الدروس تحدث الواعظ عن التبنى فى الإسلام. وحكى عن زيد بن حارثة الذى أراد النبى أن يتبناه. إلى أن جاءّ أمر الله بأن ذلك ممنوع فى الإسلام.

أحست أنصاف وقتها أن جسدها كله يهتز، وعرق بارد يتساقط داخلها. فتامر ليس بابنها . إنه ابن محروسة التي ماتت بعد ولادته بيوم واحد. وابن الشاب الذى مات على إثر حادث أليم.

معنى هذا أنها قد أخطأت - هى وزوجها - عندما نسبا الولد إليهما. كان يجب أن يظل ابن أمه وأبيه الحقيقيين.

كادت تحكى للواعظ حكايتها مع تامر. لكنها خافت من أن تتسرع وتفسد كل شىء.

سارت في طريقها إلى سيارتها التى تقف قريباً من البحر. لقد حملت الطفل - تامر - هو ابن يوم واحد لا أكثر . كان لحمة حمراء كما يقولون. ومنذ ذلك الوقت أصبح ابنها. هي التي نظفته وأطعمته وسهرت على راحته حتى أصبح جزءًا منها. تستذكر له دروسه وتوصله بسيارتها إلى لجنة الامتحان.

كثيرًا ما تساءلت لو كان ابنها حقيقة. أكانت ستحبه كل هذا الحب. أيمكن أن تتخلى عن ابنها بهذه السهولة؟!

ألحت على زوجها بأن يعيد الحق إلى أصحابه. وأن يدعو الولد باسم أمه محروسة وأبيه الذى مات والذى لا تعرف اسمه للآن. فصرخ يسرى فيها:

- وماذا سيحدث للولد عندما يعلم بأنه ليس ابننا؟!

- لكن الواعظ قال..

- لست على استعداد لأن أعرض ابنى لهزة عنيفة كهذه.

لم تستطع أنصاف أن تقنعه، ولم تستطع أن تفرض عليه رأيها. فهو شديد التعلق بالولد. منذ أن انشغلت بالمسجد وصديقاتها هناك، لم تعد تهتم بتامر كما كانت؛ وحل يسرى مكانها فى ذلك .. فهو يأخذه فى سيارته بعد الظهر، يجلسان فى النادى؛ أو يذهبان إلى السينما أو المسرح، ويعودان يضحكان. لكن الولد لا يرتاح لأحد مثلما يرتاح إليها. طول بقائه مع يسرى وهو يذكر أمه ما الذى يشغلها هذه الأيام. لقد تغيرت وأصبحت دائمة الشرود وكأن أمرًا يشغلها ويقلقها.

ثم انتقلت أنصاف إلى مرحلة أخرى. فقد أقنعها الواعظ بأن المرأة كلما توغلت فى الدين وخاضت فلابد أن تبتعد عن زينتها وحرصها على أن تبدو جميلة أمام الآخرين. ليس من الأهمية أن تبدى زينتك لصديقاتك من النساء. الجمال هو جمال الدين. وأن النقاب هو الأقرب إلى أخلاق المؤمنات والأقرب إلى الله سبحانه. فتنقبت أنصاف وأخفت وجهها.

وذات يوم كان الواعظ فى أحسن حالته. فقال عن التزام المرأة بحدود الله. وأنها لابد من أن تخفى زينتها إلا لزوجها. وقتها تذكرت أنصاف أن الولد تامر ليس بابنها. وليس من الذين يسمح

لها الدين بأن تتكشف عليهم. معنى هذا أن تامرًا أصبح غريباً عنها ويجب أن تخفى وجهها عنه. فلقد كبر الآن. ثلاثة عشر عاماً وقامة طويلة تبديه أكبر من عمره.

لقد وصل الولد لعمر الرجولة. وإذا لم يصل. فسنوات قليلة ويصبح رجلاً. ووقتها سيتذكر ملمس جسدها.

واجهت أنصاف زوجها فجأة ذات مساء، والولد تامر فى حجرته (تعرف أنه مازال مستيقظاً. تسمع صوت الموسيقى التى يسمعها):

- يسرى . لابد أن ينتقل تامر إلى بيت آخر.

- ماذا؟!

إننى أخاف على نفسى من الفتنة.

- تخافين على نفسك من ابنك؟

- إنه غريب عنى.

- لم أعد أطيق تصرافتك هذه.

- إننى لم أخرج عن حدود الدين والشرع.

- الولد أصبح مثل ابننا تماماً.

- أعلم . وكم يؤلمنى هذا . لكن العواطف ليس لها مكان هنا.

- وأين سيذهب؟

- فليعد إلى أهله. فلديه أعمام وأخوال.

- لن أستطيع احتمال هذا البيت دون ابنى.

- هو ليس ابنك . وهذا حرام.

- حرام . لو لم نأخذه صغيرًا ونرعاه. ماذا كان سيحدث له. وأنت ترين الأطفال المشردين فى الشوارع.

نام يسرى ليلتها وهى كما هى على فراشها. تسمع صوت غطيطه الذى يعذبها. ليتها تنام مثله لكنه تركها للحيرة. هى تحب الولد وتتمنى أن تستمر حياتهم هادئة مستقرة كما كانت. أن ترى تامرًا كما ودت من قبل. أن يكون طبيبًا ناجحًا أو مهندسًا. بل تمنت أن تراه زوجًا. وتقبل زوجته. وتحمل أطفاله بين يديها. لكن ماذا تفعل والواعظ قال كلمته. وهى تثق به. وتعلم أنه يقول الحقيقة. لابد أن تنسى آلامها . وتدوس على قلبها. وتكبت عواطفها.

دخل تامر حجرة أنصاف فى الصباح وهى نائمة. بينما يسرى فى الخارج. كان الولد يبحث عن شىء يخصه فى الصوان المجاور للسرير. سار على حذر خشية أن يوقظها. فقامت فزعة. صرخت : أخرج من هنا. أخرج.

فزع الولد:

- ماما . ماذا بك؟

- لست بأمك . أخرج.

كانت تبحث عن شىء تستتر به نفسها. الغطاء ثقيل ولا يصلح لذلك كما أنها فوق السرير ولا تستطيع رفع غطائه ليغطيها. بكى الولد.

كانت ترتعش وكأنها محمومة،

- ماما .. هل أنت بخير؟

- سأكون بخير لو خرجت.

الولد جزع عليها. يقترب منها يريد أن يحميها من هذا الخطر الذى يحيق بها:

- ما الذى يغضبك منى؟

حينذاك دق الجيران الباب. بعد أن سمعوا صوتها عالياً. فأسرع تامر إليهم:

- أمى ليست فى حالة عادية. إننى أخاف عليها.

أسرعت جارة من الجارات إليها:

- ماذا بك يا أم تامر؟

- الولد دخل حجرة نومى وأنا نائمة فيها.

- وما الذى يغضبك . ألست بأمه.؟!

تلعثمت. أرادت أن تقول «أنه ليس بابنى» لكنها لم تستطع .

التفت النسوة حول تامر. حكى لهن ما حدث فى دهشة. طالباً منهن إنقاذ أمه التى تتصرف ، كأن شيئًا يطاردها. أسرعت الجارة التى حدثت أنصاف. وأخذته إلى شقتها:

- لا تخف ستهدأ أمك بعد قليل. وستعود كما كانت:

عندما جاء يسرى أخبرته الجارات بما حدث. أسرع إلى تامر وضمه إليه جزعاً.

- هل أنت بخير؟

- المهم أمى . إننى أخاف عليها.

انشغل تامر بأصدقائه أولاد الجارة . وهمست المرأة ليسرى:

- زوجتك مريضة . لابد من عرضها على طبيب نفسى.

- ليس هناك داع لهذا . ستهدأ بعد قليل.

أسرع يسرى إلى أنصاف التى صاحت فيه متحدية:

- لقد مللت من هذا . إما أنا أو تامر فى هذا البيت.

قال فى أسى:

- سأترك لك الشقة. وسأذهب بإبنى إلى شقة أخرى.

هــى

دخلت شـارع «جبل ناعسـة» المزدحم بالمقاهـى. سـارت بقـامتـهـا الجافة المشدودة.

الرجـال يجلسـون على مـقـاعـدهـم ؛ أكثـرهم يرتدون الملابس البلدية، وتطل طواقيهم فوق رؤوسهم تطاردها تجعلها تتعثر، تكاد تكبو على وجهها . بعض أقاربها، وأصدقاء زوجها وإخوتها يرتادون هذه المقاهى قد يقومون من أماكنهم ليسألوها عما تريد.

أين قهوة عبد الراضى؟ المقاهى عديدة أمامها. سألت طفلا عنها. فأشار إلى واحدة تقع على الناصية، أمامها شجيرات ثلاث ملفوف أعلاها بقماش أبيض.

تابعت البيوت بجوارها لم تجد مدخلا أمامها. باب البيت فى الزقاق المجاور. سارت ناحيته ودخلت البيت لم تجد من تسأله عن المعلم عبد الراضى. وقفت بعض الوقت فى دخلة البيت الواسعة والطويلة. ثم سارت بضع خطوات ودقت الباب:

- أريد المعلم عبد الراضى.

- من أنت؟

أجابت المرأة التى سألتها:

- أننى امرأة.

صاحت فى سخرية:

- ماذا تريدين منه يا امرأة؟!

- موضوع خاص.

مصمصت المرأة شفتيها وتحدثت من مكانها مع زوجها الذى بالداخل. فجاء بقفطانه:

- من؟

تراجعت، وصلت إلى منتصف دخلة البيت. هى الآن قريبة من باب البيت المفتوح على الدرفتين ليسهل هروبها إذا ما لزم الأمر.

- أريدك فى كلمة.

أدخلى ، تعالى إلى الشقة.

- لا . أريدك هنا.

نظر عبدالراضى إلى زوجته مندهشا ومتسائلاً عما يفعل، وليؤكد لها أنه لا يعرف هذه المرأة.

- ماذا تريدين؟

أعطته الجنيهات الخمسة التى كانت فى يدها طوال الوقت حتى امتزج العرق بها:

- قطعة أفيون.

صاح غاضبا، ورمى لها الجنيهات الخمسة:

- أفيون؟! حد الله بينى وبينه. أنا لا أبيعه ولا أعرفه. اذهبى عن بيتى.

وأسرع إلى الداخل، قال لزوجته قبل أن يغلق الباب:

- مباحث .

وقفت محتارة وسط دخلة البيت، دقت الباب ثانية. عندما فتح عبد الراضى وجدها تبكى وترتعش ، وتمد الجنيهات الخمسة ثانية:

- أرجوك. أخى مريض فى بيته وفى حاجة إلى فص أفيون.

- صاح بها:

- يا امرأة أنا لا أعرف الأفيون ولم أره فى حياتى.

وعندما شرع فى غلق الباب وضعت يدها على الدرفة ومنعته:

- أنت تعرف أخى.

وعندما ذكرت الاسم هدأ الرجل، فهو يعرفه جيدا، من رواد قهوته، ولقد زاره مرة فى بيته مع بعض الرجال عندما علم بمرضه:

- تفضلى إلى الداخل، سأحضر لك الأفيون.

- جاءت «هى» من الصعيد شابة. عمل زوجها وأولادها فى الاسكندرية. واكتفت هى بلوازم البيت وإعداد الطعام لهم، لا تعرف الذهاب إلى أبعد من «محطة مصر» القريبة من البيت. وعندما يقام حفل فى مسرح بمحطة الرمل لابد أن تذهب مع من يعرف الطريق حتى لا تتوه.

طوال الحياة التى عاشتها فى الصعيد والاسكندرية لم تدخل قسم شرطة حتى عندما تشاجرت مع جارة لها واشتكتها الجارة فى قسم الشرطة، وطلبوها هناك. عمل زوجها وأولادها وأخوتها المستحيل حتى لا تذهب إلى هناك. فمن العار أن تدخل المرأة قسم الشرطة لأى حال من الأحوال، والتى يحدث لها هذا.. تعايرها النسوة الأخريات. لأن أهلها لم يستطيعوا حمايتها ومنع الشرطة عنها.

لكنها تسعى - هذه المرة - للحتف بقدميها. أفيون أتذهب لشرائه بنفسها. أيمكن أن يصدق هذا عقل؟!

لكن أخاها النائم فى بيته منذ شهور وغير القادر على السير، أمسك يدها قائلاً فى توسل:

- لم آخذ أفيونا منذ وقت طويل.

- هذا لمصلحتك.

ـ أننى أدرى بحالى. عندما آخذه سأكون قويا.

ـ قل لولدك.

ـ قلت ، لكنه لا يسمعنى . بائع الأفيون كان يجيىء كل مساء . لكن زوجتى وولديها طردوه ومنعوه من الحضور.

يستطيع الولد الأكبر أن يأتى له بالأفيون المطلوب . فهو يعرف تجاره. لكن النقود قليلة. فمصاريف البيت كله تعتمد على الولدين اللذين يعملان فى ورشة للأخشاب. يصنعان الأبواب والنوافذ. ويدفعان لصاحب الورشة أجرة (المكن) الذى يستخدمونه فى مسح وتقطيع الأخشاب.

ـ أخرجت هى منديلها من صدرها وأمسكت ورقة من فئة الخمسة جنيهات مكرمشة وأعطتها لأخيها. قال:

ـ من سيشترى لى.؟!

صاحت فى دهشة:

ـ أننى لا أعرف بيعه.

جاءت زوجته لتقدم الشاى لها. فتوقفا عن الحديث. وأخفت «هى» الخمسة جنيهات حتى لا تراها الزوجة بعد أن خلت الحجرة إلا منهما . قال:

ـ تعرفى قهوة عبد الراضى؟

ـ لا.

- فى جبل ناعسة. اسألى عنها هناك.

- تريدنى أدخل القهوة أمام الرجال الجالسين؟!

- لا. شقة المعلم بجوار قهوته. فى الدور الأرضى. هو سيبيع لك.

- لا أستطيع.

سعل الرجل حتى ازرق وجهه.

- سأستريح إذا ما مضغت فص الأفيون.

أسرعت الزوجة والأولاد عندما سمعوا صوت سعاله. قالت الزوجة:

- ما الذى حدث؟

كان يلهث وصوته متقطع. قامت الأخت وقالت:

- سأذهب لإحضار الدواء.

* * *

أمسكت الأفيون فى يدها وسارت . ماذا لو تتبعها البوليس. أو قد يكون بيت المعلم مراقب. ياه. ستكون فضيحتها - حينذاك - لا مثيل لها فى عائلتها، بل فى بلدتها كلها.

تحسست الفص الملفوف فى ورق السيلوفان، ملمسه ناعم، كاد ينزلق من بين أصابعها . آه لو وقع. سيراه المارة ويعرفون أنه أفيون.

تنهدت فرحة عندما وضعت قدميها فى أول الشارع الذى يسكنه أخوها.

مهما حدث فلن تهتم. المهم أن تعطى لأخيها ما يتمناه.

فى دخلة البيت درجتان مصنوعتان من الطوب الأبيض غير المطلى. أرادت أن تجلس فوقهما وتبكى حتى تدخل لأخيها مرتاحة. فالبكاء يدفع نفسه داخلها، يداعب عينيها. لو بكت فى شقة أخيها ستأتى زوجته وأولادها خاصة الولدين الكبيرين. ليسألوها عما يبكيها.

دخلت الشقة. لم يكن هناك أحد أمامها. الزوجة فى المطبخ تعد الطعام. رائحته تفوح. والولدان الكبيران خرجا. وشقيقها نائم. حمدت الله لأنه استطاع النوم. فقد كان يتمناه ستوقظه. وتعطيه الفص لينشط جسده كما يقول. لابد أن نحقق للإنسان ما يتمناه . ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث. أو ربما يكون شفاؤه على هذا الفص. نعم. الله قادر على كل شىء.

اقتربت من شقيقها النائم:

ـ أخى.

بعد أن توقظه ، ويضع الفص تحت لسانه. ستنادى زوجته وتخبرها بقدومها:

ـ أخى . أخى.

ربتت فوق جسده. ثم لمست وجهه. كان هادئا . دفعته فى صدره برفق:

ـ استيقظ يا أخى قبل أن تأتى زوجتك. أحضرت لك الأفيون.

ـ وضعت وجهها فوق وجهه وضحكت (كثيرا ما كانت تداعبه هكذا).

ـ استيقظ.

جاءت الزوجة . صاحت فزعة:

ـ ماذا حدث له ؟

ارتبكت هى:

ـ لا أعرف.

دست قطعة الأفيون فى يدها.

دفعت الزوجة جسد زوجها ونادته. لكنه لم يستجب. وهى عندما تأكدت من موته رمت فص الأفيون على الأرض وصرخت.

الاختيار الصعب

بعد موت زوجها بأيام ثلاثة. خلت الشقة أمامها. أهلها الذين جاءوا لمواساتها ـ عادوا إلى بيوتهم بالأمس وظلت هى وابنتها الصغيرة فى الشقة الواسعة وحدهما. الطفلة نائمة، تداعب الستارة الحمراء فوق السرير، تشدها بيدها الصغيرة وتناغيها.

تنهدت فى أسى فمنذ أسبوع ـ لا أكثر ـ كان يقف تحت الشرفة يحدث زوجته ترسل إليه الغداء عن طريق الحبل و «السبت» وإذا مر بائع فاكهة تعجبه. يشترى وينادى عليها. تنزل «السبت» يضع ـ هو ـ الفاكهة فيه.

الولد حلمى «صبيه» يشاركه الغداء الذى ترسله رتيبة إليه، جاء زوجها به ليساعده فى عمل الدكان بعد أن كثر الزبائن. وأصبح الدكان مشهورا فى «العصافرة» بأنواع القصات التى يقدمها، قالت رتيبة:

ـ هو أنا كنت ناقصة صبيك؟

ـ الولد غلبان يا رتيبة فى حاجة إلى مساعدة.

تضحك رتيبة فحلمى هذا ـ أكثر طولا من زوجها ـ هو أقل عمرا منه بسنوات قليلة.. لكنه طويل ونحيف تذكرت رتيبة عند ما جاء أول مرة إلى الدكان. تابعته من شرفتها. كانت ملابسه مكرمشة. وبعضها ممزق وآثار الخياطة واضحة بها. وعيناه تنظران إلى الأرض فى أسى وخجل.

دخلت رتيبة الشقة. ألحت أمها بالأمس لكى تأخذها معها هى والبنت. لكن رتيبة أصرت على البقاء فوالدها موظف على قد حاله. ولا يستطيع الإنفاق عليها وعلى ابنتها التى فى حاجة إلى علب اللبن الصناعى الكثيرة. قالت لأمها:

ـ لن أذهب . سأظل هنا حتى أجد حلا لموضوع الدكان.

ملت ابنتها من اللعب فى الستارة الحمراء. فبكت ثم حركت ساقيها ويديها «فركتهم» وازداد بكاؤها...

رحلة طويلة بدأها حمدى زوجها منذ أن كان طفلا صغيرا. يخرج من المدرسة يتناول طعامه عادة ما يكون سندوتشات لأى طعام تعده أمه له. يلف الرغيف البلدى عدة لفات ويقضم اللقمة وهو سائر. فلابد أن يبدأ العمل فى الدكان قبل أن يأتى زبون واحد.

يصحو معلمه مع آذان الظهر. يصلى فى المسجد القريب من الدكان. يتكاسل . يمد ساقيه الطويلتين فوق المقعد فى انتظار

حمدى ليكنس الدكان ويمسح بلاطه، ثم يمسح المرايا الكثيرة ويجهز العدة.

يتوافد الزبائن بعد ذلك. يجلسون فوق المقعد الكبير أمام المرآة يتابع حمدى معلمه، عيناه لا تبتعدان عن رأس الزبون. يسرع بعد انتهاء الحلاقة ينظف الملابس من الشعر العالق بها، يخرج الزبون القروش القليلة. يمسكها حمدى فى تلذذ، يرميها فى جيب جاكتته الواسع والعميق، يبقى فى الدكان إلى منتصف الليل، وأحيانا بعد ذلك. ويعود إلى البيت متعبا، فهو طوال الوقت واقف ومنحن على البلاط.

القروش فى جيبه تدفئه. يعطى لأمه - الغلبانة - بعضها، والباقى له. لن ينفقه - كما يفعل أقرانه - سيدخره سيتمتع برؤيته كل ليلة. يبقى فى فراشه طويلا يعاند النوم سعيدا بالقروش التى اغتنمها من زبائن الدكان.

لم يحلم بأن يكون طبيبا أو معلما فى مدرسة أو مهندسا فى مصنع، أو أى شىء آخر من هذه الآمانى. كان ما يشغله أن يمتلك محلا - مثل معلمه - يكون أكثر اتساعا من هذا وبه ثلاثة مقاعد كبيرة للحلاقة. والزبائن أكثر.

الرحلة أطول مما كان يظن فقد أخذه الدكان من الدراسة. ظروف أسرته لم تسمح له بأن يصل إلى الإعدادية. مرة فى مرة استطاع أن يستخدم المقعد الكبير الخالى وأن يحلق للزبائن مثل

معلمه حتى أصبح له زبائن يأتون من أجله. وإذا ما وجدوه مشغولا - أو خارج الدكان - ينتظرونه. وإذا ما طلب صاحب المحل أن يحلق لهم. يعتذرون إليه بأدب. فقد اعتادوا على حلاقته لهم.

البقشيش لم يعد قروشا قليلة، كبر، أصبح ربع جنيه ثم نصف جنيه بأكمله، لم تعد القروش تثقل جيبه وتعوق تقلبه فوق الفراش. فالعملة المدفوعة له أصبحت كلها ورقية.

واقترب الحلم من التحقيق - خاصة بعد أن رأى رتيبة تنظر من نافذتها فى الدور الأرضى. فى البيت المواجه للدكان، تقابله كل صباح بغمازتين فوق الخدين. وابتسامة خجلى ، تسأله عن الساعة ، ويطلب هو منها زجاجة ساقعة من الثلاجة.

يترك معلمه الدكان له. لم يعد يأتى بعد صلاة الظهر مباشرة. يتأخر - الآن - إلى ما بعد العصر أو المغرب . وحمدى يعمل كل شىء.

والد رتيبة موظف حكومة. ملابسه بسيطة. وأعباؤه ثقيلة. لكنه - رغم أى شىء - موظف حكومة ويصعب عليه أن تتزوج ابنته حلاقا.

لكن حمدى لم ييأس فهو يحب رتيبة. والبنت أعلنت رأيها بلا مواربة أو خوف أو خجل، فهى تحبه ولن ترضى بغيره زوجا. المشكلة أن والدها وضع العقدة فى المنشار «لكى تتزوجها لابد أن يكون لديك دكانا خاصا بك، وشقة».

وعمل حمدى ليل نهار ـ كان يفتح الدكان قبل التاسعة، ولا يغلقه إلا بعد منتصف الليل. ويحمل حقيبته ـ فى يوم الاثنين ـ ويدور على البيوت . هناك زبائن يفضلون الحلاقة فى بيوتهم. وآخرون حالتهم الصحية لا تسمح لهم بالخروج وأولاد صغار لا تنفع الحلاقة لهم إلا بين أهلهم. وفى أحضان أمهاتهم النقود التى جمعها استأجر بها دكانا أكبر من دكان معلمه، ببابين كبيرين واستأجر شقة فى نفس البيت لكن فى العصافرة. نقوده لا تمكنه من استئجار شقة ودكان وسط البلد.

أحست رتيبة بلسعة برد وهى تقف فى الشرفة. كما أن المكان أمامها مقبض، يدعو للخوف، الدكان مغلق، والمنطقة كلها مظلمة. ليس هناك محلات سواه.

دخلت شقتها أغلقت باب الشيش والزجاج وسترت الستائر الثقيلة عليهما.

تابعت وجه ابنتها القريبة الشبه من وجه أبيها. سمعت دقات على الباب يا ترى من الذى سيأتى الآن؟

أمها لا يمكن أن تأتى متأخرة هكذا، كذلك أبوها وإخوتها تكاسلت وهى تسير، فقد تكون ابنة صاحب البيت فكثيرا ما تأتى لتتسامر معها، لتحكى لها عن أشياء تافهة تحدث فى الحى.

فتحت المزاليج الكثيرة رأت عم الضوى يقف أمامها، بقامته المديده المنحنية من أثر السنين قال:

- كيف حالك يا هانم؟

- أهلا اتفضل

ليس بيننا وبين عم الضوى شىء. هو يسكن «العصافرة» منذ أن كانت جبلا، ويعرف كل الذين جاءوا إليها.

- تعال يا حلمى . اطلع.

اقترب حلمى (صبى زوجها).. مد يدها لها. صافحها متمتما بكلمات لم تسمعها. أحست بالقلق، ما الذى جاء بهما هكذا. فقد قدما واجب العزاء إليها يوم أن مات زوجها. قال الرجل:

- حلمى يريد أن يفتح الدكان.

- ماذا؟

- حرام أن يترك هكذا دون منفعة. الزبائن سيطيرون، ولابد أن تلحقهم قبل الذهاب إلى محل آخر، قال حلمى وكان صامتا طوال الوقت: - والعدة يمكن أن تصدأ وتبلى من تركها هكذا.

- لكن ...

- الأرزاق على الله يا ابنتى. وحلمى سيأخذ ما كان يأخذه من المرحوم. وكل شىء لك ولابنتك.

تقف رتيبة فى الشرفة، الشمس تملأ المكان تحتها. الزبائن يتراصون فى الخارج يتشمسون، كثير منهم يأتى ليجالس حلمى

ويتسامر معه. فالولد حلو الحديث. وله أصدقاء كثيرون. بعكس زوجها الذى كان انطوائيا.

بعد الظهر، ترسل الغداء إلى حلمى، كما كانت تفعل مع حمدى. يمسك - هو - الطعام ممتنا يدعو لها ولابنتها بالخير. ليس مهما أن يحدث أى شىء - على الأقل ستكسب ثوابا فى شاب مثل هذا - لا يهتم به أحد.

فى المساء يغلق الدكان ويصعد إليها، يشترى الحلوى للبنت الصغيرة. البنت اعتادت عليه ترتمى فى صدره الآن. كانت تخافه وتبكى عندما تراه.

يخرج النقود من جيوبه الكثيرة جنيهات وأنصاف وأرباع جنيهات. وقروش كثيرة. يضع كل عملة فوق بعضها وتعدها هى معه. هذا هو إيراد اليوم.

أمها لا ترتاح لدخوله البيت هكذا، مهما كان هو شاب وهى امرأة صغيرة وجميلة.

- يا ابنتى . أجرى الدكان وارتاحى.

الإيجار لن يأتى إليها بذلك المبلغ، الذى يحددونه لا يكفيها هى وابنتها عيش جاف.

بعد أيام قلائل جاء عم الضوى وحده. كان مرتبكًا، قال فى أسف:

- أنا الذى جئت بحلمى إليك لكى يعمل فى الدكان. كنت أريد خيراً لك وله. ولم أكن أعلم بما سيحدث.

- وما الذى حدث؟

- الجيران يتحدثون. كيف يدخل شاب مثل هذا ويخرج على امرأة بلا رجل؟!

بكت رتيبة، ما الذى تفعله، الرجل مات فجأة. ليس له دخل سوى دكان الحلاقة. وهى لا تعرف كيف تديره كما أن إيجاره لا ينفع معها. قالت:

- وماذا ترى؟

- الأمر لله..

خرج الرجل دون أن يحل مشكلتها، ماذا يريد منها؟ أن تطرد حلمى الذى جاء به إليها وتغلق الدكان وتذهب إلى أبيها المثقل بالديون من أجل أسرته الكبيرة العدد؟!

فى الصباح استيقظت متأخرة فقد نامت متأخرة أيضا عيناها متورمتان من أثر البكاء. سمعت صوت حلمى فى الشارع وهى مازالت فوق فراشها. لم تفتح الشرفة طوال اليوم. ولم ترسل إليه غداءه ككل يوم، فهى لم تعد غداء لنفسها، حزينة وقلقة ولا تعرف ما ستفعل.

فى المساء جاء ككل يوم. قال:

- قلقت عليك اليوم.

- لماذا؟

- قالتها بجفاء وجدية.

كان منظرها يوحى بذلك، لم تضع المساحيق على وجهها ككل يوم وشعرها غير مرتب وعيناها متورمتان.

أخرج النقود من كل جيوبه. وضعها فوق المائدة الصغيرة. مدت البنت يدها. أمسكت ببعض النقود. أخذ هو يعد ويتحدث. وهى شاردة صاحت فجأة:

- حلمى . تتزوجنى؟

اكتشـــاف

أعد حقيبة سفره فى المساء. وضع بها الهدية التى سيقدمها إلى أخته بمناسبة زفافها فى الغد بدمنهور.

أمسك الهدية:

ـ ما رأيك؟

قالت زوجته فى جفاء:

ـ حلوه.

أحس بطريقتها الجافة فى الحديث. لكنه ـ رغم ذلك ـ أكمل :

ـ ستعجب أختى لاشك.

ـ لم تجبه . قامت فى تكاسل. هكذا ـ هى ـ منذ أن تزوجته . سنوات يحايلها ويراضيها على أمل أن تقنع بحياتها معه، وتصفو مع الأيام حياتهما معاً. دون فائدة.

تزوجها بعد موت أختها الكبرى التى تركت ولداً صغيراً فى حاجة إلى رعاية وإلى أم.

يعرف هو «أنها» تحب ابنه. ولقد اعتنت به طوال فترة مرض أمه. وبعد موتها حتى تعلق الولد بها. وصار لا يستطيع الاستغناء عنها.

أنجبت منه ولداً آخر. حاولت كثيراً أن تتخلص منه لكنها لم تقدر. جاء الولد رغم كل ما فعلته.

«هو» يتحملها، ولا يظهر لها ضيقه بها رغم ما تفعله. كل يوم مطالب جديدة لكى تثير مشاكل معه. الشقة فى حاجة إلى بياض، المراتب والوسائد فى حاجة إلى تنجيد، ويوافق هو رغم ظروفه الصعبة. يقترض من أخيه وأمه وأصدقائه حتى أصبح مدينا بمبالغ كبيرة من أجلها. ماذا سيفعل. لديه ولدان فى حاجة إلى رعاية؟ أين سيذهب بهما. لقد تحملها - أول الأمر - من أجل ابنه الذى كان فى شهوره الأولى.. وها هو يرتبط بها بولد آخر.

ابتسم لها . قال مداعباً:

- أول مرة سأفارقك. منذ أن تزوجنا.

لوت رقبتها بعيداً عنه ولم تجب.

عندما أعلن عن رغبته فى حضور حفل زفاف أخته فى دمنهور. وضرروة البيات هناك، كان بوده لو ناقشته أو اعترضت على سفره. أو حتى طلبت منه أن يعود من هناك بعد انتهاء حفل الزفاف لينام فى بيته. لكنها لم تعلق كعادتها. وكأنها قد ارتاحت لأنه سيتركها وحدها فى البيت .

قال : تعالى معى أنت والولدان.

قالت فى ضجر :

- لا سأبقى فى شقتى.

رغم مشاكلها معه، تعامل الولد - ابن أختها - وكأنه ولدها. والولد يحبها ويرتاح لها كثيراً. وهذا الذى يهمه. فالمهم أن يأمن على الولدين معها.

فى الصباح الباكر أيقظ الولدين - رغم اعتراضها وضيقها من ذلك. الولد الأكبر ابتسم له، وتعلق فى رقبته وقبله. لكن الأصغر بكى. ثم أكمل نومه بعد ذلك.

ابتسم لها وداعبها:

- ستوحشنى يا جميل.

- لم تجبه.

- لن اتأخر عليكم. ليلة واحدة لا أكثر.

سارت خلفه. تريده أن يسرع فى الخروج: لكى تغلق الباب خلفه وتعود إلى نومها.

الوقت ككل يوم. انشغلت بعمل البيت وبالولدين. لكن قلقاً - تدرى له سببًا - ظل يصاحبها وهى جالسة فى مدخل الحمام تغسل الأوانى كعادتها.

اقترب موعد عودته من عمله . أجل قبل الساعة الثالثة بقليل تسمع صوت احتكاك حذائه على درجات السلم ثم صوت جرس الباب. تعرف «دقته»، تقول لابنها ساخرة:

- البك ، شرف.

تقف متكاسلة، تفتح له الباب. يحمل - هو - أكياس الفاكهة دائماً. وبيده الأخرى كيس الخبز.

عمله قريب جداً من البيت. لا يأتى منه مباشرة . فلابد من الذهاب إلى السوق - فى طريقه - لشراء ما يلزم البيت. فهو لايريد أن يتعبها.

لكنها - هذه المرة - لم تسمع جرس الباب. وتذكرت أنها لن تسمع صوته ولا مرة واحدة طوال اليوم، لم تأت أمها كعادتها. ولا أحد أخوتها، حتى الجارات اللاتى كن يطلبنها للحديث معها - أو لأى شىء آخر - لم يأتين إليها.

أحست بالخوف . هل حدث شىء فى الخارج وهى مشغولة مع الولدين.

أسرعت إلى الراديو. أدارته. كل شىء فيه كما هو. أغانى عادية فى إذاعة الشرق الأوسط. ونشرة الأخبار فى البرنامج العام كادت تنتهى.

سيأتى «هو» بعد قليل ويخبرها بما حدث. سيحكى لها عن أخبار الدنيا كلها. عما لاقاه فى السوق. عن بائعة الجبن والزبد التى تجلس أمام أشيائها تمضغ اللادن والمساحيق والكحل تملأ وجهها. فى انتظار من يتزوجها من الباعة هناك. بعد أن مات زوجها. وعن الرجل العجوز الذى يسب الزبائن، خاصة النسوة فيعاملهن بقسوة. وابنه يعتذر لهن. ويراضيهن بعيداً عن والده.

ويحكى لها عن عمله. عن زميله عبدالمنعم ونوادره مع المديرين الكبار. فهو يشترى لهم ما يلزم، ويسمسر فى الأسعار.

تسمع دون أن تتجاوب معه. لكنها تحس الآن بأنها كانت تهتم بما يقول. وتريد أن تبدى رأيها وأن تعرف آخر أخبار عبدالمنعم.

ساعة الحائط دقت ثلاث دقات، وهو لم يأت قالت للولد الأكبر:

ـ كنت أنتظر عودة أبيك، وهو فى دمنهور اليوم . لقد نسيت.

عندما يدخل الشقة يغسل الطماطم والجرجير بنفسه. يحدث عن فوائدها. أنهما يساعدان على الهضم. ولولاهما لتعب «هو» وأحس بالإمساك.

كانت تمل حديثه هذا، وتضيق به وتتمنى أن يصمت.

بعد ذلك تضع الأطباق فوق مائدة الطعام. ويقف هو لشى اللحم أو تحمير الكبدة أو السجق.لابد أن يفعل شيئًا فى المطبخ. يتحدث مبتسماً رغم عبوسها الدائم. يذكر عبدالمنعم زميله وهو جالس أمام المائدة.

طلب المدير العام منه أن يشترى له سمكا من «حلقة السمك» فسمسر منه جنيهين كاملين.

ويضحك قائلاً:

- الغريب أن المدير أعطاه جنيها آخر نظير تعبه.

تريد أن تقول له «لكن دى سرقه» تحاول أن تقولها له. فلا تستطيع . فيكمل هو وكأنه يحس بما تريد أن تقول:

- عبد المنعم غلبان. أولاده كثيرون. وفى مراحل التعليم المختلفة. وراتبه ليس كبيراً.

قال الولد الكبير:

- أريد أن آكل .

مر الوقت دون أن تحس . تقترب الساعة من الرابعة الآن. ولم تأكل هى ولا الولدان. هى لا ترغب فى الأكل ، فما ذنب الولدين.

قامت لتعد الطعام لهما. كان زوجها بعد تناول طعامه. يصلى ويرتاح قليلا. ثم يخرج إلى عمله الآخر. لكى يسد الديون التى كانت هى السبب فى تورطه فيها بطلباتها التى لا تنتهى.

تنام «هى» قبل أن يعود ، تضم الولدين إليها.

لكن هذه الليلة النوم يعاندها، تطلبه فلا يأتى.

وحدها فى الشقة الكبيرة. تسكن الدور الأول العلوى. تسمع - طوال الوقت - صوت احتكاك الأحذية والشباشب بدرجات السلم.

القريبة من باب شقتها. لكنها ـ الليلة ـ لا تسمع شيئاً.

أرادت أن تفتح الباب لترى ما يحدث فى الخارج. لكنها خافت ، حدثت حالات سرقة كبيرة فى الحى. آه لو علم اللصوص بأنها وحدها فى الشقة مع ولدين صغيرين.!!

يعود «هو» من عمله قبل الحادية عشرة بقليل. يفتح الباب بمفتاحه، ويصيح على الولد الكبير تتثاءب «هى» متظاهرة بالرغبة فى النوم. يقدم الحلوى للولدين ولها. ثم يسرع إلى المطبخ ليغلى اللبن ويعد العشاء الخفيف قبل أن يخلع ملابسه.

أحياناً، يأتى إليهم بالطعام واللبن الساخن فوق السرير، خاصة فى الشتاء.

آه. لقد نسيت أن تشترى لبنا للولدين. ظنت أنها ستجد من يشتريه لها. منذ أن تزوجت وزوجها هو الذى يشتريه كل مساء.

تابعت باب الشقة. لم تصدق أنه لن يأتى الليلة. وأنها ستقضى الليل كله بدونه.

رأته يجول فى الشقة بابتسامته الواسعة. أحست بالخوف. غطت وجهها بالغطاء. بكت. قال الولد الكبير:

ـ ماما. ما الذى يبكيك؟

ـ والدك لن يأتى الليلة.

ـ لكنك تعلمين هذا منذ الصباح.

ـ أجل أعلم.

الشيخ عبد الصمد

لم أكن قد رأيت الشيخ عبدالصمد عويضة من قبل. رغم أننى سمعت عنه كثيراً. كان زميلى محمود شديد الإعجاب به، ولأن مكتب محمود مجاور لمكتبى. فهو من وقت لآخر يحكى لى عنه: قدرته الخارقة على التأثير فى الناس. وعلمه الغزير وشجاعته فى الحديث مع المسئولين، خاصة فى الشركة التى نعمل بها. فقد كان ممثلا للعمال فى النقابة.

وجاء يوما إلى مبنى الإدارة لإنهاء بعض الأوراق، مات أحد العاملين. وجاء هو لإنهاء مصاريف الجنازة.

قام محمود من مكانه مسرعا إليه، لم يكن محمود قصيرا، لكنه بدا كذلك عندما ضمه الشيخ لصدره. وجه مستدير، ولحية كثيفة يختلط بها البياض بالسواد. وجسد ممتلىء مع طول باسق.

أشار لى محمود . فقمت خجلا وصافحته.

أقسم محمود بأن يجلس الشيخ بجانبى، ويقوم هو بالدوران

حول المكاتب.. إلى أن ينهى له صرف مصاريف الجنازة.

أحسست بالخشية منه، فقد بدت يدى غاية فى الصغر وهو يضغط عليها مصافحا. وعيناه تشعان شعاعا مخيفا. لكننى أردت أن أغتنم الفرصة لكى أحدثه، وأعرف ما به.

كان يردد بعض الآيات القرآنية من وقت لآخر، ولم أحس بما حكى لى محمود عنه. قلت: «ربما لأنه لم يتحدث بصوت مرتفع. أو ربما لأن المجال لا يسمح بذلك، فالموظفون منهمكون فى أعمالهم.

قلت لمحمود بعد أن خرج الشيخ.

ـ أريد أن أقترب منه أكثر.

قال محمود أنه يعظ المصلين فى مسجد قريب من الشركة بعد صلاة المغرب. ثم وجدها محمود فرصة لكى يسهب فى وصف قدرات الشيخ وكراماته.

ورغم أن بيتى بعيد جدا عن الشركة فقد حضرت إلى المسجد وجلست بين المصلين، واستمعت إليه. ردد كلمات معادة وأدعية مشهورة. لكن ظهرت قدرته حين صرخ وصاح وتحدث عن بعض الأحوال فى حياتنا الراهنة. بعد انتهاء الدرس وبعد صلاة العشاء رأيت بعض الرجال يصافحونه ويقبلون يده. واقترب محمود منه وظهرت مكانته لديه. وأفسح لى مكانا بجواره، وأخذ يمسح على شعر رأسى متمتما .

عدت إلى البيت وأنا فى حيرة من أمر هذا الرجل فهو لم يقل شيئًا جديدا فى درسه حتى ما قاله عن أحوالنا هذه الأيام. فكلام مكرر ويكتب فى جرايد المعارضة كل يوم . وكل ما فعله أنه قاله بحماس شديد فلماذا كل هذا التكالب عليه. ولماذا يهتمون به كل هذا الاهتمام؟

أستيقظت فجأة على دقات عنيفة على الباب، وأسرعت لأفتحه، فوجدت أمامى الشيخ عبدالصمد ومحمود زميلى فى العمل. دهشت لحضورهما فى ذلك الوقت المتأخر ، خاصة لأنهما يسكنان بعيدا ، رحبت بهما ، وأدخلتهما حجرة الصالون.

كان عبد الصمد مبتسما كعادته . نظر إلى الأشياء حوله وهو يردد:

ـ ما شاء الله . ما شاء الله.

قال محمود:

ـ نريدك فى خدمة.

ـ أى خدمة .

ـ تعلم أن موعد انتخاب اللجان النقابية اقترب.

ـ أجل.

وتعلم أن الشيخ عبدالصمد يرشح نفسه كل مرة، ويحصل على أعلى الأصوات.

ـ أعلم.

ـ المشكلة أنه لابد أن يجيد المتقدمون للانتخاب القراءة والكتابة.

ـ وما صلة هذا بالشيخ عبد الصمد؟

وتحدث الشيخ عبد الصمد وهو مازال مبتسما:

ـ فى الحقيقة أننا اعتمدنا على أخ لنا؛ ليدخل الامتحان بدلا منى، لكن جاءه سفر مفاجىء.

بدوت غبيا للغاية. فلم أصدق أن الشيخ عبد الصمد الذى يخطب باللغة العربية الفصحى. ويذكر الآيات القرآنية والأحاديث والأسماء الصعبة، لا يعرف القراءة والكتابة. ظننته ـ أول الأمر ـ يستكبر على دخول الامتحان، لكَن محمود صاح.

ـ الشيخ عبد الصمد أمى.

ـ صمت وأحسست بأن الحجرة تدور حولى وصمت محمود. لكن الشيخ ابتسم. ونظر إلى الأشياء مرددا:

ـ ما شاء الله الله يبارك لك .

قلت لمحمود فى ضيق:

ـ ولماذا لا تذهب أنت لتمتحن بدلا منه؟!

ـ لا أستطيع لأن الممتحنين يعرفوننى جيدا. وكدت انكشف فى آخر مرة.

انشغلت بتقديم الشاى لهما. كان محمود شاردا - فهو - من طول مجاورته لى فى العمل - يعرفنى جيدا ، ويدرك أن المفاجأة غير المتوقعة كانت ثقيلة على. لكن الشيخ لم يتغير. مازال ينظر حوله مبتسما متمتما . قال محمود بعد ذلك.

- الامر سهل للغاية: نضع صورتك مكان صورة الشيخ فى بطاقته.

لم أكن متحمسا لذلك، ولم أستطع أن أقول «لا» وظللت مستيقظا إلى أن جاء الصباح. أخاف أن ذهبت للامتحان يكتشفون أمر التزوير وأخاف أن لم أذهب أواجه غضب الشيخ فى الشركة التى أعمل بهّا ومعظم العاملين فيها من بلدته. أو من الحى الذى يسكنه هذا غير أتباعه الذين يلتفون حوله فى مسجد الشركة ومسجد الحى الذى يسكنه.

دخلت الامتحان مضطرا. ولم يهتم أحد. إن كانت الصورة صحيحة أم لا. نظروا إلى الاسم ودونوا بعض الكلمات فى الورق وكتبت المطلوب.

وتقدم الشيخ إلى الانتخاب ، وحصل على أعلى الأصوات ككل مرة ولم أخبر أحدا بحقيقته، كل ما استطعته هو أننى لم أنتخبه. بل لم أجرؤ أن اذكر لأحد بأننى لم أنتخبه.

وجاء محمود إلى بيتى. قال الشيخ عبد الصمد يريد أن يراك فى بيته. وذلك كرم لايبديه إلا لمن يرضى عنهم ويقربهم إليه.

قلت:

- خير، عملية تزوير جديدة؟!

صاح محمود:

- أننا لم نزور ، وما فعلناه للصالح العام.

قلت فى ضيق:

- كيف يا محمود، وأنت المتعلم، أن تكون تابعا لرجل جاهل كهذا؟!

- الشيخ عبد الصمد ليس جاهلا - أنه أمى، وهناك فرق كبير بين الاثنين ولاتنسى أن رسولنا الكريم كان أميا.

ارتديت ملابسى وذهبت معه إلى بيت الشيخ عبد الصمد . رحب بى الشيخ وأفاض . أراد أن يرد لى ما قدمته له من خدمة. وأدخلنى حجرة مكتبه. وفوجئت بمكتبة كبيرة حول مكتبه قال:

- مكتبتى من الآن تحت أمرك.

أخذت أقلب فى الكتب. فوجدت بها بعض الكتب الدينية المشهورة . قلت لمحمود بينما الشيخ خارج الحجرة:

- لكن ، من الذى يقرأ له؟

- ابنه الكبير فى الخامسة الابتدائية الآن.

- آه .....

أحس محمود بما يجول برأسى فقال:

ـ وكلما أتيت لزيارته أقرأ له بعض الصفحات.

وخرجت دون أن آخذ كتابا واحدا. واعدا بطلب ذلك فيما بعد.

وفوجئت بإعلان فى مدخل المصنع، وبجوار مبنى الإدارة، عن تشكيل اللجنة الثقافية بالشركة برئاسة الشيخ عبد الصمد، واسمى ضمن الاعضاء، ولا أدرى لماذا اختارنى الشيخ لذلك . هل لأنه يعلم باهتمامى بالكتب، وأن لى بعض المحاولات فى التأليف أم للخدمة التى قدمتها له.

وجـــــوه

شاع فى الشركة أن شقيق تحسين زميلنا فى العمل، سيتزوج نادية التى تعمل فى الحسابات. أحسست بفرحة لهذا، فنادية فى حاجة إلى الزواج، أختها الصغرى تزوجت وأنجبت. نعرف هذا لأنها تأتى بها دائماً فى حفلات ورحلات الشركة. وشقيقتها ـ هذه ـ تتحدث معنا وتمازحنا وكأنها واحدة منا.

وكنا نتساءل عن سبب زواج أخت نادية قبلها، فادعى البعض بأن سبب ذلك أن الأخت أكثر طولا وربما أكثر جمالا. وأدعى البعض أن ذلك راجع لخفة الأخت وسهولة تعاملها مع الرجال، ألا ترونها تضحك وتمازح الجميع؟! وأنهى البعض المناقشة بأنه النصيب.

ولم تكن نادية انطوائية، أو خجولة أمام الرجال، بل كانت متحدثة لبقة، فى صوتها نعومة، تشترك فى جميع الحفلات والرحلات تقريبا وفى آخر مسرحية عرضتها الشركة . كانت ـ هى ـ رئيسة فريق الرقص وهى التى كونت الفريق من العاملات فى المصنع وأشرفت على تدريبه.

وترتدى فى الرحلات الصيفية المايوه (ويندر أن تفعل هذا واحدة من العاملات فى الشركة) ويسرع الشباب إلى الماء من أجلها، يقرصونها تحت الماء، ويشدونها من مايوهها، وهى تضحك وتعود إلينا، تجفف جسدها المبتل، وتتحدث وكأن شيئاً لم يكن.

وكانت ترتدى - دائماً - الملابس الصارخة الألوان ، والتى لا تتناسب مع العمل : فساتين تتماشى مع أحدث الموضات. وأكسسوارات غريبة، سلسلة حول الوسط تتدلى قطعة طويلة منها تجعل الموظفين يشدون كمها وهى تتباعد فى تدلل يجعل البعض يزداد رغبة فيها.

وأحسست أن خطوبتها من شاب تحبه. سيجعلها تكف عن هذه المعاملات التى تبغى منها الزواج.

فى الحفل الذى أقيم فى شقتهم الضيقة، جلست نادية فى فستانها البمبى تبتسم، محاولة تصنع الحياء اللازم فى ذلك الوقت وتحيى القادمين إليها والجيران والأقارب ، وبعض موظفات الشركة حولها ونزل تحسين - زميلنا وشقيق العريس - يحيينا ، ثم جاء وجلس بجوارى قلت :

- أرجو أن تنهى هذه الخطوبة مشاكل نادية.

- تنهد قائلا : ياريت .

لاحظت أن شقيقا لـ «نادية» يتحدث بطريقة فجة . يصيح مناديا أصحابه ويغنى بصوت مرتفع . ثم يمسك علبة سجائره المستورد ويلح على كل الموجودين بأن يدخنوا معه.

قلت :

ـ ماذا يعمل شقيقها هذا؟!

ـ ليست له شغلة ثابتة.

ـ لكنى لم أر والد نادية.

أشار إلى رجل مسن. منزو فى آخر الصف. يدخن لفافة فى صمت.

ـ لكنه يتعامل وكأنه مدعو.

ـ أجل فهو لا شأن له بشىء.

وتذكرت أم نادية التى تبدو أصغر من الرجل، ملابسها صارخة، وتصفق وتهتز، وتكشف عن الكثير من جسدها وتصيح ـ كابنها ـ محيية المدعوات.

قال تحسين :

ـ أصل الرجل منفصل عن زوجته منذ زمن ويعيشان معا فى شقة واحدة كالأغراب.

ـ مطلقة منه؟

ـ لا ..

وجاء العريس ـ شقيق تحسين ـ كان يرتدى بدلة سوداء .

وكان نحيفا إلى حد بعيد والعرق يتصبب من جبهته . أخذه شقيق نادية وبعض الشباب وأخذوا يهتفون له . ثم صعدوا به إلى شقة.

قال تحسين:

ـ تعال : لتشاهد العريس وهو يلبِّس العروسة الشبكة.

واستمر الموكب لوقت ليس قصيرا ودخل العريس ، جلس بجوارها .

زغردت أم العروسة، واقتربت منهما وانتظرنا أن يخرج العريس الشبكة والدبلتين ليلبسهم للعروسة لكنه لم يفعل. صاح شقيق نادية فى لهجة ممجوجة:

ـ ما تيالللا يا عريس، لبسها الشبكة.

تردد العريس ثم تحسس جيوبه، وأدخل يديه داخل كل جيوب البدلة والكل مندهش لما يحدث وصاحت أم نادية فى حدة.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ الشبكة إنسرقت منى فى الأتوبيس.

فقال تحسين فى أسى:

ـ الولد فضحنا.

صاح شقيق نادية:

ـ لا يا روح أمك دى لعبة واحنا فاهمينها.

وقال أحد المدعوين:

ـ هو فيه عريس بيركب أتوبيس.

وصاحت الأم:

ـ من يوما ما خطبها وأنا مش مرتاحة له.

أحسست بالآسى من أجل نادية، فقد تحول وجهها إلى اللون الأصفر وأمسكت بيد العريس وقالت:

ـ الشبكة ليست مهمة . المهم ...

لكن أمها شدت العريس من جانبها:

ـ قم من جانبها.

واضطر تحسين أن يتدخل قال لشقيقه.

ـ قم معى.

لكن شقيق نادية شده من ملابسه.

ـ عايز تتجوز بلاش؟

وانطلقت الصيحات بين النسوة، تدافع عن العريس ثم امتدت يد شقيق نادية لتضرب العريس الذى اضطر تحسين أن يدافع عنه.

وصعد الرجال الذين كانوا يجلسون فى الشارع، واستطاع الوالد أن يقترب من المشهد أمسك ابنه وصاح فيه:

- دعه يا ولد.

لكن الولد كان يضرب العريس وتحسين حاول أن يمنعه والمرأة - أم نادية - تدفع زوجها، فيلتصق فى الحائط.

- ليس لك شأن بهذا . أنت الذى طمعته فينا.

لكن إغماء نادية أنهى كل شىء. أسرعت الأم إليها وهى تصرخ. واقترب الوالد منها حانيا، رابتا على خدها. ونزل العريس هو وتحسين وكل أهله. ثم عدنا (كل المدعويين من الشركة) نتحدث عما حدث أمامنا.

بعد ثلاثة أيام عادت نادية إلى العمل تحدثنا إليها بأن لا تندم على ما فاتها «فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم» وهى عادت إلى حياتها العادية وتعاملت مع تحسين شقيق العريس السابق - وكأن شيئًا لم يحدث فقد كان تحسين غير راض عما فعله أخوه، فشقيقه يحب نادية حقا، ويتمنى زواجها. لكنه غير قادر على أن يأتى بمتطلبات أمها، فاضطر أن يكذب، حتى انكشف أمره، وبدأت أهتم بنادية خلال تحسين الذى يجاورهم فى السكن ويعرف كل أسرارهم: تربية الأم أفسدت كل الأسرة فلم تتعلم منهم سوى نادية وأخبرنى يوما بأن شقيق نادية الذى كان يصيح فى الحفل، قد

تشاجر مع صاحب قهوة فى الشارع العمومى الذى يتفرع منه شارعهم، وطعنه فى بطنه بمطواه فقتله، وهو فى السجن الآن.

وبلغنا أن نادية ستتزوج - ربما تحسين هو الذى قال هذا - أو صديقة لها، أفشت سرها، فقد كانت حريصة ألا تخبر أحدًا بذلك.

ربما خجلت مما حدث يوم الخطبة السابقة، أو ربما تشاءمت من وجودنا فى الحفل.

المهم أن نادية تزوجت وفوجئنا بها بعد عودتها من أجازة الزواج محجبة.

وقد كانت هناك صلة بين عملى وعملها بحيث لابد أن تأتى لنقل بعض البيانات. لاحظت أثناء ذلك ، أنها تشرد كثيرا وأن آثار إجهاد تبدو فى وجهها، سألتها عن ذلك فابتسمت قائلة:

- أننى بخير.

وفوجئنا بها بعد أقل من شهر وقد خلعت الحجاب، وعادت إلى ما كانت عليه، وتردد حديثاً غير مؤكد على أنها قد طلقت من زوجها.

جاءت يوما لنقل بعض البيانات التى تخصها فى عملها. جلست جوارى، سألتها عما حدث لها كيف تحجبت، وكيف خلعت الحجاب فجأة؟

قالت بعد حياء طويل امتنعت فيه عن القول.

ـ أصلى طلقت.

(لا أستطيع جمع ما دار بينى وبينها فى صورة حوار؛ لأننى نسيت كل ما دار بيننا فذلك قد حدث منذ وقت طويل. كما أنها امتنعت عن إجابة بعض الأسئلة وقالت كلمات مقتضبة تريد أن توحى بها عما تقصد دون أن تصرح لخجلها).

فهمت مما قالته أن زوجها كان ضعيفا جنسيا. وظنت هى أن هذا هو الزواج، إلى أن جاءت أختها الصغرى المتزوجة وقالت لها «يا خايبة ذلك لا يؤدى إلى الإنجاب» وعندما اكتشف زوجها أنها عرفت الحقيقة، أساء معاملتها فعاهدته بأن تصبر عليه إلى أن يتم شفاؤه وهى ليست فى عجلة.

لكنه كان غيورا، شديد الغيرة فارتدت الحجاب حتى يثق فيها. لكن حياتهما لم تستمر فقد كان يغير لأقل شىء إذا ما تأخرت سيارة الشركة، يتهمها بأشياء سخيفة وكان يضربها أحيانا. حتى زهقت منه بعد ذلك رغم أن نادية قد خلعت الحجاب، إلا أنها لم تعد إلى كانت عليه فملابسها لم تعد فجة كما كانت من قبل. ولم تعد تشارك فى حفلات الشركة ولا رحلاتها بل صارت أكثر صمتا وشرودا. ولم ندهش لهذا فظروفها السيئة المتعاقبة جعلتها فى هذه الحالة: حياة والدها مع أمها، وسجن شقيقها بسبب المشاجرة مع صاحب القهوة ثم فشل خطبتها الأولى وفشل زواجها بعد ذلك.

وكانت نادية تأتى إلىّ لتحدثنى عما حدث لها. خاصة أننى الرجل الوحيد فى الشركة الذى حكت له عن أسرار حياتها مع زوجها الأخير.

حكت لى عن شاب يعمل فى ورشة سيارات قريبة من بيتهم ملتح كان يحبها من قبل أن تخطب لشقيق تحسين ورفضته.

ألححت عليها بأن تذكر لى أسباب رفضها له. فقالت : شكله مش قد كده.

- كيف؟

قصير ، كما إنه ليس وسيما و...

- ولماذا قبلت به الآن؟

- لا أدرى.

كان واضحا أن ظروفها التعسة التى مرت بها هى التى دفعتها بقبول ما سبق أن رفضته. قالت:

يريد أن يتزوجنى.

- وأنت؟

- أننى موافقة . لكن له ظروف.

أحسست بأنه يستغل موقفها الضعيف ليملى شروطه.

- وما هى شروطه؟

- أن أتنقب.

صمتنا لبعض الوقت. ثم أكملت:

- أننى متـرددة فى نفسى مـا الذى يمنع أن أتنقب، لكن أمى وأختى ترفضـان هذا بشدة، وفوجئنا بنادية وقد تنقبت، لم يظهر منها سوى عينيها، ولولا حديثها الناعم المميز ما عرفناها.

عندما جاءت لنقل بعض البيانات لم تحدثنى، قالت لزميلة لى: «قولى له كذا وكذا» . وأجبت الزميلة رغم أنها بيننا وتسمع ما أقول. اعترض زميل لى على طريقتها فى العمل لكننى قلت له أن ذلك لا يضايقنى فى شىء ولها أن تفعل ما تشاء ما دام لا يضايق أحدا.

«وبدأت أسمع عنها أشياء غريبة، تمتنع عن مصافحة الرجال حتى عندما دخل رئيس الشركة مهنئا بالعيد أمتنعت عن مصافحته رغم أنه مد يده لها. ورغم عمره الذى يقارب الستين».

وحكت للنسوة أن زوجها رآها تقبل صورة شقيقها المسجون، من شدة اشتياقها إليه فأمرها بأن ترمى الصورة على الأرض وتدوسها بقدمها. وفعلت. وأنها عندما تسمع داعية مشهور يظهر فى التليفزيون تعطى له ظهرها لأنه حرام أن تنظر إلى الرجال.

وامتنعت عن أن يكشف طبيب الشركة عليها. لأنه قبطى وكتبت الشكاوى ضد الذين يسمحون لطبيب قبطى بالكشف على المسلمات.

وبالطبع انتهى بها الأمر بأن استقالت من الشركة.

الصوت الخافت

طبول تدوى وتدق فى أذنيها.

القلب كسير، والجسد يرتعش تحت الغطاء.

فاجأتها حالة نشيج فاستسلمت لها وبكت، اهتز الجسد كله من أثر البكاء.

البنت روحية - أكبر بناتها - تنام بجوارها . تضع يديها مضمومتين أمام وجهها كأنها تتعبد والفتاتان الأخريان تنامان فى الحجرة الثانية.

تداخلت الأصوات ، رعد ، ودقات طبول كأنها طلقات مدافع. وأصوات بعيدة لحيوانات مفترسة تقترب منها كلما اقترب النوم من عينيها، فتوقظها.

لا حول ولا قوة إلا بالله. الليل طويل لا ينتهى. متى سيذهب ذلك الكابوس الذى يطاردها، فتنام - كما كانت - ملء جفنيها وترتاح.

لقد مات الرجل منذ شهور . مات موتة ربنا. بعد معاناة طويلة مع المرض. كان - رغم المرض - ينام فى الحجرة معها. تغلق بابها عندما يحين وقت النوم. والبنات الثلاث فى الحجرة الأخرى وقتها لم تكن تسمع تلك الأصوات التى تأتى من بعيد، ولا كانت الوحوش المفترسة تطاردها فى نومها ويقظتها. كان الجو هادئًا وساكنا ومريحا. والنوم يأتى بعد أن تضع رأسها على الوسادة مباشرة. وتحلم فى النوم . فتصحو فتجده بجوارها فوق الفراش.

عملت - هى - فى إحدى المستشفيات . وعملت البنت روحية لدى بائع مفروشات فى العطارين ليساعدا الرجل المريض. كانتا راضيتين عن هذه الحياة. لكن الرجل مات.

منذ أيام قلائل قالت لها امرأة جاءت تواسيها:

- المفروض أن يأتى أبو زيد ليربى أولاد أخيه.

- ماذا تقصدين بكلمة «يأتى»؟

قالت المرأة مستنكرة سؤالها هذا:

- لا أعلم .

أبو زيد - شقيق زوجها - أصغر منه ، وأصغر منها. جاء إلى الإسكندرية مرات قليلة. لم يبق بها سوى أيام معدودات، وعاد بعدها إلى الصعيد.

هو طويل مثل أخيه الذى مات. لكنه أقوى. يحكى الذين يأتون من بلدته عن قوته. وعن كمية الطعام غير العادية التى يتناولها فى كل وجبة.

هذه عاداتهم فى الصعيد - أن يتزوج شقيق المتوفى أرملة أخيه. ليربى أولاده . بدلا من أن يربيهم الغريب، فيسب الزوج السابق ولا يحسن معاملة الأبناء.

لكن أبا زيد أصغر منها بكثير.

البنات الثلاث غير راضيات عن هذه الزيجة. بل غير راضيات عن حضور عمهن إلى الأسكندرية «ما الذى يشغلك؟ أنت لست فى حاجة إلى المال. لديك راتب شهرى أنت وابنتك روحية يكفى كل الحاجات، كما أن المرضى يعطونك بقشيشا يغنيك».

لكن البيت لابد له من رجل، أى رجل.

جاءت عمة البنات . ضربت على صدر المرأة وقالت:

- سيأتى أبو زيد إليك.

- إلى أنا؟!

- نعم .

- فليأتى إلى الاسكندرية. لكن عندى ليس له مكان.

ضربتها العمة على صدرها بدلال:

- سيأتى أبو زيد إلى الاسكندرية من أجلك أنت.

- كيف؟

ارتبكت. تلعثمت لا تستطيع أن تنكر أن أشياء كثيرة فى جسدها قد تغيرت. وأن الحدة التى كانت تتحدث بها وتعارض. قد زالت. حاولت أن تستعيد حدتها وأن تتظاهر بالغضب لمجىء ذلك الرجل. لكنها خابت، وبدت الكلمات ضعيفة وواهنة.

ابتسمت عمة البنات وأدركت أن المرأة راغبة فى الزواج منه.

الرجل الذى مات كان مريضا طوال الوقت ، حتى فى أيامه الأولى من الزواج. تزوجته المرأة ولم تكن تدرى أنه مريض، وأنجبت منه البنات الثلاث.

لكن أبا زيد - أخاه - الأصغر مختلف ، جسده كالجبل.

البنات الثلاث ينمن فى الحجرة الأخرى الآن.

ليلة الزواج أخذتهن عمتهن، لتترك للعروسين الحجرتين، يرتعان فيهما. بكت البنات حزنا على أبيهن ، وغضبا من أمهن التى نسيت كل شىء من أجل شاب صغير.

أخفت البنات الثلاث دموعهن عنها. لم يرتحن لعمهن. خاصة البنت الثانية والثالثة. فالأم وروحية تذهبان إلى عملهما، ويبقى الرجل فى فراشه. يستيقظ بعد ذهاب المرأة إلى عملها بساعات

عديدة، توصى ـ هى ـ البنتين أن يستجيبا لطلباته، تضعان الطعام له فوق الفراش.

تعجبت البنتان من القدر الكبير من الطعام الذى يأكله. ثم ينزل عن الفراش بعد استرخاء طويل.. يدخن الشيشة وهو جالس على الكنبة يتابع المارة من خلال النافذة.

الرجل ـ والحق يقال ـ لم يسىء أبدا إلى بنت من بنات أخيه. فهو يعامل امرأته بالحسنى. لم يغضبها ولم يسبها يوما. لكن البنات الثلاث غير راضيات عنه. فهو يأكل كثيرا. ولا يأتى بمليم واحد. منذ أن جاء من الصعيد وهو عاطل. لاحظت المرأة هذا فى شهوره الأولى فابتسمت خجلى من نفسها . وقالت : «عريس وفى حاجة إلى الراحة». لكن الوقت يمر وهو كما هو. لم تحس المرأة بالتغيير الذى حدث لميزانية البيت. أو ربما أرادت ألا تحس بذلك . فنبهتها روحية : «يا أمى نقودك ونقدوى تذهب إلى زوجك الذى يأكل كثيرا».

أول الأمر لم تهتم. وقررت أن تأتى على نفسها. فامتنعت عن شرب الشاى فى المستشفى ، ولم تشارك زميلاتها فى شراء شىء هناك. اكتفت بطعام المستشفى المجانى من أجل توفير النقود لأكله ودخانه.. لكن الوقت طال. وهو لم يفكر فى العمل.

اقتربت منه وقالت وهى منحنية فوق جسده القوى:

ـ أبا زيد . لماذا لا تتقدم لعمل ما؟

تثاءب، ورفع صدره لأعلى ، فرفعها معه. وقال:

ـ سأفكر فى الأمر.

اعتذرت وداعبته ، ولم تتركه إلا بعد أن اطمأنت أنه لم يغضب. ولم يأخذ على خاطره.

الشهور تمر. وهو كما هو . وهى كما هى . تتحمل المشاق فى المستشفى من أجل مبالغ قليلة لكى تغطى نفقاته.

البنت روحية أعلنتها صريحة ، وبلا حياء.

ـ حرام أن نعمل أنا وأنت من أجله. وهو نائم معظم الوقت.

لم تجبها المرأة . هى لا تريد أن تغضبه. لكن روحية عندها حق وألف حق. هو لا يريد أن يفعل شيئًا . كل الذين جاءوا من الصعيد بعده عملوا أعمالا منتظمة ، وهو اكتفى بالزواج وحمد ربنا على هذا. كان صدر أبى زيد العريض يعلو ويهبط فى انتظام فوق الفراش. والمرأة تنظر إليه فى تردد. تريد أن تلمس الجسد القوى بيديها، أن توقظه. والبنات الثلاث فى الحجرة الأخرى يدفعنها لكى تتخذ موقفا.

والدهن كان مريضا . تزوجته مريضا. ولم تحس بمدى ضعفه إلا بعد أن جاء هذا الشاب إليها من الصعيد. الرجل عيبه الوحيد أنه لا يعمل، ويريد أن يعيش من عرقها وعرق ابنتها، وأن يأخذ من

قوتها وقوت بناتها الثلاث. وياليته يقنع بالقليل. فطعامه يتكلف كثيرا . أكثر مما تقدر عليه.

البنات الثلاث لا يحببنه. ولم يرغبن فيه زوجا لأمهن. هن يدفعنها لاتخاذ موقف معه . ويشرن إليها من الحجرة الأخرى لكى تدخل حجرته لتواجهه.

المرأة لم تستطع . بكت . وارتدت ملابسها وخرجت.

عندما اقتربت البنات منها. دفعتهن عنها فى غضب واجهشت فى البكاء . ذهبت إلى عمة البنات.

قالت لها :

ـ أخوك لا يريد أن يعمل . يريد أن يقضى كل وقته فى الفراش.

قالت عمة البنات:

ـ وماذا تريدين منه.

ـ أريد . أريد ...

لم تستطع أن تكمل . أرتمت فى صدر عمة البنات واجهشت فى البكاء.

الصديق

حينما دق جرس التليفون كنت متعبًا. فلقد سهرت بالأمس لوقت متأخر من الليل، كنت أشاهد فيلما أجنبيا فى القناة الثانية.

شدنى الفيلم . قاومت النوم من أجله. تذكرت أن وردية عملى فى الغد تبدأ فى الثانية عشرة ظهراً.

لكن التليفون ظل يدق فى أصرار. أحسست بالضيق، من الذى سيطلبنى الآن؟!

تقلبت ممنيا نفسى بأن ييأس الطالب ويكف عن ملاحقتى.

وحدى فى البيت. تخرج زوجتى قبل الثامنة بقليل. فمقر عملها على بعد دقائق من بيتنا. إذا ما تأخرت عن الثامنة ينظر إليها المدير فى غضب لكنه لا يتكلم. وهى تكره نظرته تلك. طلبت منى أن ترتاح من نظرة ذلك المدير الغاضبة، وتبقى فى البيت ترعى الأولاد وتنتظرنى عند عودتى كل يوم. لكننى لم أقدر ، فدخلى لا يسمح لى بأن أبعدها عن العمل.

ظل جـرس التليـفـون يدق وأنا مـشـغـول عنه بالنوم. يأتينى ضجيجه كجزء من حلم يتداخل مع أحداث الفيلم الذى شاهدته ليلة أمس. البطلة أثيرة لدى. أحاول ألا يفوتنى فيلم يعرض لها فى التليفزيون. جسدها مختلف تماما عن جسد زوجتى. هى نحيفة وطويلة. ساقاها طويلتان. بعكس زوجتى القصيرة الممتلئة. كما أنها تضحك دائما . وتتقبل ثورة زوجها بابتسامة عذبة صافية، بينما تثور زوجتى لأقل سبب.

عندما طال دق التليفون، أحسست وكأن مطرقة تدق مؤخرة رأسى فى عنف. بينما نجمتى المفضلة تربت على خدى فى حنان بابتسامتها العذبة. وزوجتى أمامى، تعقد شعرها القصير بفوطة مبللة.

تلاشت صورة النجمة لدى. فمددت يدى أبحث عن سماعة التليفون وأنا مازلت نائما. أخطأت يداى الوصول للسماعة مرات. إلى أن عثرت عليها فأمسكتها:

ـ آلو ....

ـ جاءنى صوته مخنوقا ، ثائرا:

ـ سنة لكى ترد على التليفون؟!

ـ من؟

ـ ماذا بك لم تعرفنى للآن؟!

عرفته ، بحدته وصوته المرتفع:

ـ أهلا بك.

ـ أخيرا عرفتنى

لم أجبه، أكمل:

ـ الساعة تجاوزت الثامنة ومازلت نائما.

ـ شاهدت بالأمس فيلما أجنبيا.

ـ مخك فاضى دائما.

عادة ما يبدأ بالهجوم ويسخر من محدثه. أكمل:

ـ لم أنم منذ أمس . تشاجرت مع زوجتى.

هو دائم الشجار معها، والشكوى من تصرفاتها.

ـ ليس مهما . فذلك يحدث بين الأزواج والزوجات .

صرخ فى التليفون:

ـ لا. هى شىء آخر . مخلوق بشع لا يحتمل.

شـــردت . أردت أن أحكى له عن بطلة فـيلم الأمس. لكنه ظل يصرخ قلت:

ـ سينتهى الأمر ككل مرة.

ـ هذه المرة لن ينتهى . لقد اتفقنا على الانفصال.

- لقد تجاوزت الخمسين، وهى كادت فلماذا تتصرفان هكذا؟

- لا تقل لى هذا، بل قله لها.

أحسست بالخوف من أن تكون مكالمته معى سبباً فى استئناف الشجار بينهما. فهى حتما مازالت فى البيت وتسمع ما يقال . قال:

- أنا فى حاجة إليك.

- تريد نقوداً؟

صرخ ثانية:

- من الذى ذكر لك النقود الآن؟!

- أتفقت أنا وهى على أن نقتسم العفش.

- لهذه الدرجة؟!

صاح غاضبا أيضا:

دعك من هذه الكلمات التى لا فائدة منها واستمع إلى جيداً.

تذكرته وهو يغضب . فينفر العرق فى صدغه . ويزداد طوله قليلاً . وكأنه يقفز فى الهواء.

- سيأتى شقيق زوجتى وأخوها ليحضرا القسمة. وأنا ليس معى أحدا، أريدك أن تأتى لتؤازرنى.

لقد بحثت طويلا ولم أجد سواك.

ـ لا تهتم سأحضر.

ـ لا تذهب إلى عملك . سأدفع لك أجرة اليوم.

ـ دعك من هذا ، فأنا عندى أجازات كثيرة.

أغلقت باب الشقة خلفى وسرت فى طريقى إلى موقف الترام. لم أجد صعوبة فى ركوبه، جلست فى مقعد بجوار النافذة. تابعت الطريق وأنا شارد فى صديقى. لعله الآن يتشاجر مع زوجته.

هو قصير وجسده ضعيف. بينما زوجته أكثر طولا وعرضا . يمكن أن تحمله بين يديها بسهولة وتسير به مسافات طويلة.

رأيته أمامى يلوح فى الفضاء. ويختنق صوته داخله. بينما زوجته تطارده بجسدها الممتلىء. فترتفع الفانلة الداخلية التى يرتديها. فيكتشف عن جسده العارى.

كثيرا ما ذهبت لفض المنازعات بينه وبينها. أحيانا أجدها تصرخ فيسمعها كل سكان الشارع الذى يسكنونه وأحيانا تلطم خديها فى عنف حتى تدميهما، من تأثير كلماته اللاذعة.

هو وحده منذ أن عرفته. لا أعرف له أسرة سوى زوجته وأولاده. لم أر له يوماً شقيقا أو شقيقة. أو خالا أو عماً وكأنه اقتطع من شجرة. بينما أسرة زوجته متماسكة. لم أر فى بيته قريبا له يزوره. وأجد دائما أفرادا من أسرتها: أختها الصغيرة التى تعيش معهم شهورا عديدة: تنام فيها فوق سريره. وينام هو فى مكان آخر

وحده. وأختها الأخرى المتزوجة والتى تأتى بأولادها الكثيرين. هذا غير الأخ الذى يتدخل فى كل شىء .

هو سريع الغضب. ولسانه ـ عادة ـ ما ينطلق بالسباب والسخرية من محدثه مهما كان وضعه . وشقيق زوجته قريب الشبه بها. طويل وعريض ويده لو صفعته فستدميه. وقد يأتى بأولاده الذين يشبهونه. هذا غير النسوة الكثيرات.

رأيت صديقى أمامى، وواحدة من أخوات زوجته تشد فانلته الداخلية فتمزقها، وأخرى تدفعه في ظهره.. فيصل جسده إلي جسد شقيق زوجته الذى يحمله بيديه إلى أعلى ويرميه، فترتطم رأسه بالبلاط العارى فيسيل الدم. يلوث الفانلة البيضاء ويصل إلى البلاط.

نظرت فى ساعتى ووقفت. رغم أن الترام لم يصل إلى بيته. أحسست بالخوف عليه كان من المفروض أن استقل تاكسيا لكى أصل قبل أن يقتلوه.

أسرعت إلى باب الترام. خشيت أن يسير دون أن أستطيع النزول. أوهام تطاردنى. ماذا لو وجدته قد قتل، والبوليس داخل الشقة، والجثة ما زالت ملقاة فوق البلاط العارى.

أسرعت فى طريقى إليه. المنزل أمامى. درجاته متسخه مظلمة، تذكرنى بمدخل بيتى. شقته فى الدور الأول العلوى مغلقة أيضا. ليس هناك جندى يقف أمام الباب ليمنع الدخول والخروج منه، كما يحدث دائماً فى حالات القتل.

وقفت لحظات لعلى أسمع صوت الشجار لكننى لم أسمع شيئًا.

عندما دخلت لم أره. قد يكونون قد أخفوا جثته. ألقوا بها بجوار محطة القطار. لكن المحطة البعيدة.

خرجت «هى» من إحدى الحجرات، رأسها معقود بفوطة، بطريقة توحى بأنها تعانى ألماً فى رأسها.. تذكرت بطلة فيلم الأمس. كانت تضع فوطة فوق شعرها الطويل المعقود لأعلى وهى خارجة من الحمام، تداعب زوجها بخفة.

صافحتها مبتسما. لم ترد ابتسامتى. أشارت إلى حجرة بعيدة لأدخلها. عندما فتحت بابها رأيته أمامى. لا، لم يكن مجروحاً ولا لابسا فانلته الداخلية كما توهمت، بل كان فى كامل هيئته، يجلس فوق مقعده حزينا.

- أذهب وقل لها كلمة تنهى كل هذه المشاكل.

لم يجبنى . أحسست بأنه خائف منها ومن أختيها وأخيها.

بحثت عنها لأحدثها. وجدتها فى حجرة النوم، تلف المرتبة فى صعوبة، واختها تساعدها وتمسك طرف الحبل الطويل جدا. فتربط المرتبة بالحبل. ثم تقصه بمقص معها قلت:

- انت جاهزة بكل شىء.

- عاشر مرة وأنا أجمع عفشى هكذا.

- ما دام الامر كذلك . فلماذا تتعبين نفسك.

- لا . هذه المرة لن أعود إليه مهما فعل.

- حتما كنت تقولين هذا فى كل مرة سابقة.

- قالت أختها :

- غلبنا معها وهى مصرة على الانفصال.

- معلوم . فانتما لا تعيشان معه. ولا تعرفان طبعه.

- أعرف دلبعه . لكن الأولاد، كيف سيحتملون ما يحدث.

- الأولاد يعرفونه ويعذروننى.

- هو عصبى حقيقة . لكن قلبه طيب.

- الطيبة لا تعرفه. ولم تقترب منه . صدقنى أنا . لقد فعلت معه المستحيل . كل شىء قدمته له دون طائل.

فجأة وجدته أمامى فى الحجرة.

- أرجوك . أرجوك اذهب الآن.

اندهشت واندهشت زوجته وأختها . أننى لم أغضبه. كل ما فعلته أن دافعت عنه.

- ألم تسمعنى . تفضل . أنا قادر على حماية نفسى. لا أريد تدخلا من أحد.

أحست هى بى، قالت:

- سأعد لك شايا.،

أى شاى الآن. والكل منشغل بقسمة العفش وأخذ ما يمكن أخذه.

سرت فى طريقى إلى الباب. كنت أمسك طرف الحبل الطويل؛ لكى أمنعها من ربط مرتبتها الملفوفة.

من شدة خجلى وارتباكى نسيت طرف الحبل فى يدى. ازددت ارتباكاً عندما رأيت الأخت الثانية والشقيق ينظران إلى من بعيد.

لحظة ضعف

كانوا يجلسون على المقعد الكبير، ذى المظلة العالية، بشارع الكورنيش قريبين من حديقة «نادى الصيد» بالسلسلة.

السيارات تهرع من حولهم ذاهبة وآيبة وهم يتسابقون فى معرفة نوع كل سيارة (أوبل . مرسيدس . بيجو. الخ).. الولد عزت خير من يعرف أنواعها، رغم أن عائلته ـ كلها ـ ليس بها من يمتلك سيارة.

يعمل والده «بوابًا» يرتدى جلبابا أبيض ويجلس أمام العمارة الكبيرة.

عزت تلميذ بمدرسة إعدادية قريبة من العمارة التى يعمل بها أبوه. لونه أسود نحيف. الأولاد ـ أقرانه ـ يحبونه، فهو يجيد الرقص جسدة النحيف يساعده على ذلك، ويغنى لهم أغان لم يسمعوها من قبل. يقولون أن أقاربه البوابين علموه إياها.

كان يرقص وهم جلوس وسط شارع «الكورنيش» ويغنى وهو يضحك.

سكان العمارة التى يعمل بها أبوه - يحبونه - تناديه النسوة ضاحكات:

تعال يا عزت.

والده «البواب» لا يحب هذا، فهم يعطلونه عن استكمال استذكار دروسه، لا يحب أيضا أن يعطوه ما تبقى من ملابس أولادهن، فهو يعلم أن ولده يلعب مع أولاد سكان العمارة والعمارات المجاورة، وسوف يسيئه أن يرتدى ما كان يرتديه زملاؤه؛ وربما عايره الأطفال لذلك.

ولكن والده «البواب» يأخذ منهن الملابس، ويضعها فى حجرته الصغيرة - تحت السلم - إلى أن يجد بوابا فى حاجة إليها فيعطيها له.

توقف عزت فجأة عن الرقص والغناء، فقد صاح به ولد من أقرانه:

- عزت ، هاجر تقف هناك.

نظروا جميعاً إلى هناك، كانت هاجر - التى تسكن الدور الأرضى من العمارة - التى يعمل فيها أبوه تقف بقامتها المديدة على حافة الرصيف، قلقة، تنظر فى ساعتها من وقت لآخر.

ردد عزت لنفسه:

- ما الذى أتى بها إلى هنا؟!

هاجر، هى التى ألحت على أبيه أن يجعله يكمل تعليمه ، كان يريد له أن يترك المدرسة ـ كسائر أخوته ـ ويعمل أى عمل ؛ ليساعده. ولكن هاجر ـ لأنها تحبه ـ أصرت أن يدخله أبوه المدرسة الإعدادية، بل ذهبت بنفسها تقدم له أوراق التحاقه بها.

زملاؤه ـ أبناء الحى ـ يعرفون كم هى تحبه ، يسألونه : هل قبلتك؟

ولكنه لا يجيبهم ، فلا يصح أن يحكى لهم عما حدث بينهما.

لقد كانت تحمله فوق صدرها وهو صغير، وتأخذه من أمه ليبقى لديها فى الشقة، إذا ما خرجت أمها.

للآن، تنادى عليه، تحدثه كصديق، تسأله عن تسريحة شعرها، لون فستانها.

ويجيبها ، تقول له : إنها كانت تود أن يكون لها أخ صغير مثله، فهى وحيدة أبويها.

لم تقبله منذ سنوات طوال، ولكن لا شك، هى مازالت تحبه.

قال حمدى ـ يوما ـ وهو يسكن فى العمارة المقابلة لعمارتهم:

ـ هاجر تعرف شابا أكبر منك، وشقيقى الأكبر رآها تركب سيارته.

يومها، بكى عزت، وخاصم حمدى، ولكن ذلك الموضوع مر عليه وقت طويل، لقد نسى هذا، وعاد حمدى صديقاً له.

ولكن عزت سمع أحاديث مثل هذه من البوابين - أصدقاء أبيه .
قال أحدهم:

- لو كانت هذه البنت فى بلدتنا، لقتلناها، أنها تركب سيارات الأغراب.

لم يبك عزت يومها، ولم يصدقهم.

قال حمدى:

- لا شك أنها تنتظر سيارة أحدهم:

نظر عزت إليه شزرا، لم يجبه، أسرع إلى الطريق، السيارات تهرع أمامه. يرى هاجر تقف على الرصيف المقابل، يريد أن يسرع إليها، ولكن السيارات - المسرعة - تحول بينه وبينها.

اقترب أصدقاؤه منه ، قال أحدهم:

ماذا ستفعل؟

لمحتهم - هى - من الرصيف الآخر، حركت ساقيها، ترددت ، لعلها أرادت أن تذهب بعيدا عنهم، أسرع عزت إليها، أطلق سائق سيارة نفيرها ليحذره، قفز عزت إلى الرصيف قبل أن تصدمه السيارة ، صاحت هاجر فزعة:

- عزت ، لماذا أسرعت هكذا!؟

كان يلهث، لا يدرى لماذا، فهو يجرى لساعات طويلة دون أن يلهث هكذا.

ـ «أبلة» هاجر.

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا؟

ـ آتى مع أصدقائى إلى هنا كل جمعة.

نظرت إلى الرصيف الآخر، الأطفال ـ زملاؤه ـ ينظرون إليها، يتهامسون.

ـ اذهب يا عزت إلى أصدقائك.

كانت تحرك ساقيها ويدها التى تحمل الحقيبة، حركات رتيبة.

أراد أن يقول شيئاً فلم يستطع. نظر إلى وجهها ، ثم سار فوق الرصيف.

لن يسرع كما جاء ، سينتظر حتى يخلو الطريق من السيارات.

وقفت سيارة أمام هاجر، أخرج سائقها الشاب رأسه، توقف عزت عن السير، نظر عزت إلى السيارة التى وقفت، وإلى هاجر التى مازالت تنظر إليه فى حيرة.

سار خطوات نحوها، أصدقاؤه يسيرون ـ على الرصيف الآخر ـ ناحيته.

ووقف عزت أمام السيارة، قال الشاب وهو مازال يبتسم:

- تأخرت عليك؟

لم تجبه، نظرت إلى عزت، ثم إلى أصدقائه، قال الشاب: ماذا بك؟

أسرعت إلى باب السيارة، وضعت يدها فوق مقبض الباب، اقترب عزت منها أكثر، صار مواجها لها، بعض أصدقائه، استطاعوا أن يصلوا إليه، والباقى يراقب من بعيد.

صاحت هى غاضبة:

- عزت .. ماذا تريد؟

الأصدقاء - الذين أتوا - التفوا حولهم، صاح الشاب فى دهشة:

- ما الذى يحدث؟

لم تجبه، ارتعشت يدها فوق مقبض الباب، صاح الشاب: من هذا الولد؟

تجاهلت قوله وقالت لعزت:

- ماذا تريد الآن؟

وضع يده فوق يدها التى تمسك مقبض باب السيارة.

صاح الشاب غاضبا: ماذا تريد يا ولد؟!

جاء الأولاد الباقون من الرصيف الآخر، أكملوا الدائرة حولهم.

وقف بعض المارة يتساءلون عما يحدث.

انتصبت هاجر، تركت مقبض باب السيارة، قالت لعزت فى استجداء:

- يرضيك هذا؟!

فتح الشاب باب السيارة وأسرع إليهما: من هذا الولد يا هاجر؟

نظرت إليه فى حيرة ولم تجبه.

سأل رجل مار ولدا من الأولاد: ماذا يحدث هنا؟

قال الولد: تريد أن تركب السيارة مع هذا الشاب، وزميلنا يحاول أن يثنيها عن هذا.

أمسك الشاب يدها وقال:

- تعالى يا هاجر ، ودعك من هؤلاء الأولاد.

حركت قدما واحدة نحو السيارة، ولكن عزت قال : بربك لا تذهبى معه.

صاح الشاب بصوت مرتفع - سمعه الرجل - الذى مازال يتحدث مع الولد:

- هيا يا هاجر ، الناس سيلتفون حولنا.

حركت القدم الأخرى، اقترب الرجل المار من الشاب وصاح غاضبا:

ماذا تريد منها؟!

صاح الشاب لهاجر: هيا ، هيا.

ولكن عزت بكى:

- لا تذهبى معه.

عدد كبير من المارة اقتربوا من السيارة، نظروا إلى عزت وإلى الشاب، وإلى هاجر.

الأولاد يقفون خلف عزت، يؤازرونه.

صاح الشاب:

- هيا ياهاجر.

ولكنها، تركت يده وسارت مع عزت فى خطوات وئيدة قلقة.

مازالت تتابع السيارة بنظراتها.

وقف الشاب حائرا للحظات، ثم ركب سيارته وسار بها.

وسارت هاجر مع عزت، وبقى الأطفال فى مكانهم.

نظر إليهم من بعيد مبتسماً، ثم لوح بيده لهم. فلوحوا له مبتسمين.

هاتف من بعيد

كنت أرى عدلى واقفا فى المصعد الكبير المخصص لنقل البضائع، يسبح ويردد الآيات القرآنية ويبتسم ابتسامته الخجلى، ويتحدث فى أدب جم، فينتقى الكلمات العذبة، وقلما تجد صوته عاليا.

هو من أسرة قوية فى الطابية (المكان الذى تقع فيه الشركة التى أعمل بها) أقاربه يعملون فى الجزارة، وهو بعد انتهاء عمله فى الشركة يعمل معهم. يوصيه بعض العاملين بشراء اللحم، فيأتى لهم بقطع جيدة. وبسعر أقل بكثير مما يباع فى السوق.

قبل العيد بأيام قليلة يأتى بالسكاكين بكل أنواعها ليسنها فى الشركة. الخفراء يعرفون هذا ويسمحون له بإدخال السكاكين والخروج بها مسنونة. ويرددون له مبتسمين:

ـ كل عام وأنت بخير.

لكن حدث حادث لم يكن يتوقعه، أحد الخفراء اعترض على إدخال هذه السكاكين، وأصر على الرفض. لا يعرف أحد - للآن - لماذا فعل الخفير هذا .. فهو أمر عادى جدا فى الشركة، كثير من العاملين يأتون بسكاكينهم ومقصاتهم ليسنونها هناك.

ادعى البعض أن أسرة الخفير على خلاف مع أسرة عدلى. فالخفير من سكان الطابية أيضا. لكن آخر أكد أن الخفير طلب كيلو لحم على الحساب فامتنع عدلى عن البيع له.

ترك عدلى السكاكين الكثيرة على «البوابة» ودخل عمله عادى جدا . وقف وسط المصعد الضخم وابتسم ابتسامته الخجلى ، وردد آيات القرآن وأدعيته. لكن ما فعله الخفير ظل يطارده. لقد أحرجه أمام العديد من العاملين الذين كانوا واقفين وقتذاك.

عاد إلى أدعيته وتذكر السكاكين التى لم تسن إلى الآن. ماذا سيفعل؟ لابد أن يعود بها الليلة إلى أخوته الجزارين. أيقول أن خفيرا عارض فى دخولهم المصنع . سينظر إليه أخوته فى استخفاف ويتهمونه بالضعف. سيقولون أنه لا يكف عن الابتسام والدعاء ولا يظهر بطولاته فى المعارك التى تحدث أحياناً بينهم وبين العائلات الأخرى. بل هو يدعو - دائما - إلى السلام ونبذ الشجار والخلافات.

أثار بعض العاملين الذين يركبون مصعده ببضائعهم الموضوع . قالوا:

- وفيها أيه لما تسن السكاكين هنا؟ ما كلنا بنعمل كده.

ابتسم قائلاً:

- منه لله.

وبعد انتهاء عمله أخذ سكاكينه من الموظفين الجالسين على «البوابة» قال أحدهم:

- آسفين جدا . لولا أن الخفير نبه المسئولين إلى ذلك . كنا سمحنا لك بسنهم.

- ولا يهمكم . حاسنهم بره.

لم يذهب إلى الدكان لإعادة السكاكين. أخذهم إلى بيته . لاحظت زوجته أنه اليوم أكثر هدوءًا عن كل يوم. وأنه لم يسأل عن نوع الطعام الذى سيأكله - كعادته - كان يضع اللقمة فى فمه شاردا . سألته:

- حاتروح الدكان؟

- لا . سأنام.

ليس من عادته النوم بعد الظهر . فهو يتناول طعامه - أحيانا - فى الدكان ولا يأتى إلى البيت إلا مساء مع أخوته الذين يسكنون معه فى نفس البيت.

وهو نائم حلم بالخفير وهاتف يدعوه لقتله. رأى الخفير يقف على باب الشركة يدفع السكاكين أمامه فى عنف رافضا دخولها.

فيقع بعضها على الأرض. والعاملون يدوسون عليها بأحذيتهم وعدلى يصرخ ليبعدهم عنها. يمسك بواحدة . فتدوس الأحذية فوق أصابعه . فيصرخ ويصرخ . حتى جاءت زوجته وأيقظته.

- حلم ثقيل.

رشت الزوجة وجهه بالماء . وأخذت رأسه فى صدرها.

- ذلك لأنك نمت بعد الأكل مباشرة.

- فين السكاكين التى جيت بها من الشركة؟

- أخذها أخوك حسنين علشان يسنها.

عندما ذهب إلى الدكان لم يسأل عن السكاكين. عمل كعادته: أخذ يقطع اللحم. ويحمل الذبيحة وأخوه يقطعها. وفوجىء بعد الحادية عشرة مساء بأحد أقاربه ممن يعملون معه فى الشركة يعيد السكاكين إلى أخيه حسنين بعد أن سنها فى الوردية الثانية. أحس عدلى بالخجل. وبأنه ضعيف كما ادعى أخوته وأقاربه. لم يكتشف أحد شروده الدائم. فهو - عادة - دائم الصمت.

وهو عائد إلى البيت اكتشف أنه منذ أن فعل الخفير ما فعل، لم ينسه أبدا . ولم يفكر فى شىء سواه. نام قبل موعده بكثير، رغم نومه بعد الظهر على غير عادته حتى ظنته امرأته مريضا.

عانده النوم طويلا وهو مغمض العينين. ومنظر الخفير أمامه يصيح ويدفع السكاكين. فيحمر وجهه الأبيض. فكر فى أشياء

كثيرة: أن يأتيه رئيس الشركة، راكبا مصعده المخصص لنقل البضائع، يعتذر له، يقول:

- حزنت كثيرا للذى فعله الولد الخفير معك، وحاديله خصم يومين، واحنا عندنا كام عدلى.

- لا يا بك حرام. عنده عيال ، أنا مسامحه.

يأتيه صوت زوجته تحدث زوجة أخيه حسنين تقول:

- عدلى عيان النهارده . نام بعد الظهر . ونام الليلادى قبل ميعاده.

وفجأة وجد نفسه يفكر فى ذلك الخفير . بعض الرجال الكبار فى المصنع ممن يعيشون فى الطابية ويعرفونه ويعرفون الخفير يأتون إليه ممسكين به. يدفعونه فيكاد يكبو أمام عدلى:

- اعتذر له يا ولد.

فيقترب الخفير منه، يصعد إلى رأس عدلى العالية يقبلها معتذرًا آسفا. ويبتسم عدلى، ويربت على ظهره بأن كل شيء راح لحاله. لكن النوم يفاجأه فيجد الخفير فى الحلم ثانية يمنعه من إدخال السكاكين فيختار عدلى أصغرها ويدكها فى صدره. فيقع الخفير على ركبتيه ويصيح متألما.

قام عدلى فى الصباح ، توضأ وصلى. سألته زوجته :

- مالك ، تشعر بمرض؟

ـ حلمت بأننى طعنت الخفير.

ـ أى خفير؟

ـ الذى منعنى من دخول الشركة بالسكاكين.

ـ الشر بره وبعيد. أخوك سنهم وانتهى الأمر.

ـ أمسك كوب الشاى باللبن وشرد. لقد قرأ فى أحد الكتب : «أن وحى المؤمن منامه» وهو مؤمن وموحد بالله كما أنه سمع هذا القول من أحد الوعاظ، لا يدرى فى أى مسجد.

قال لزوجته :

ـ حلمت به مرتين .

ـ فضك من السيرة دى، وانتبه لشغلك.

ـ لكن دى مسئولية.

ـ أية مسئولية؟!

ـ لا شىء.

حمل أشياءه وسار إلى الشركة. وجد الخفير يقف على الباب الآخر بقامته القصيرة ووجهه المائل للاصفرار، تابعه عدلى من مكانه، وجده يبتسم لزميله . وقف عدلى. لا يدرى ما الذى أوقفه. رأى الخفير منحنيا يمازح زميله.

يزدحم المصعد بالعاملين ، وهو يردد بصوت مرتفع.

ـ وحى المؤمن منامه.

أراد أن يسأل عن معنى هذا . لكنه خشى أن يسخروا منه. فكر فى الذهاب بعد المغرب إلى المسجد ليسأل الواعظ عن ذلك.

فى أول يوم عيد الأضحى. دخل عدلى المصنع. أول مرة يعمل فى العيد. دكان الجزارة يعمل فى الأعياد أكثر من أى وقت آخر.

منذ أيام قال رئيسه:

ـ طبعا ، عدلى مش فاضى فى العيد.

ـ لا . أنا فاضى وأريد أن أعمل.

ظنه البعض على خلاف مع أخوته الجزارين. ففضل العمل فى المصعد على البيع فى الدكان. قبل أن يخرج من البيت فى هذا اليوم حدثت مشكلة، صرخ أخوته فيه:

ـ تسيبنا فى يوم مثل هذا. مش أنت أولى من الغريب؟

صاحت زوجته :

ـ ده أحنا بنستنا اليومين دول بفارغ الصبر.

لكنه أصر على الذهاب إلى العمل.

العمال قليلون . معظم العاملين فى أجازة . وليس هناك مسئول واحد.

دخل عدلى من البوابة . صافح الخفراء.

ـ كل عام وأنتم بخير .

ورفع يده محييا البعض من بعيد . ومصافحا كل من يقابله .

قبل المسجد بقليل وجد الخفير الذى منعه من الدخول بالسكاكين، اقترب منه. ظنه الخفير سيصافحه. أخرج عدلى سكينه الذى سنه قريبه فى الوردية الثانية وطعن الخفير عدة طعنات . صرخ الرجل.

والتف الناس حولهما ، الخفير ملقى على الأرض يصرخ. واضعا يده فوق الجرح الذى ينزف، وعدلى يمسح سكينه بقطعة ورق التقطها من الأرض. قال البعض:

ـ الإسعاف بسرعة. الإسعاف بسرعة.

واقترب هو من الخفير مشاركا فى حمله ومرددا:

ـ هذا أمر الله.

كان حزينا من أجله. أراد أن يساعدهم فى إدخاله عربة الإسعاف. لكنهم أبعدوه قال: ـ

ربنا يشفيه لعياله.

لم يحاول أحد إمساكه. وهو لم يهرب . عندما جاء ضابط نقطة الطابية ومعه الجنود المسلحين ابتسم لهم وسار معهم دون قول. مرددا:

ـ هذا أمر الله .

القصر الكبير

تعود منصور الغندور أن ينام بعد الظهر، تعرف أمه عنه هذا ، لذا تعد له سريره قبل أن ينتهى من غدائه، يحدثها وهو يتناول الغداء - حتى ولو كانت فى حجرة بعيدة - يحكى لها عما يحدث له فى الشركة التى يعمل بها .

تعرف - هى - كل زملائه ورئيس الشركة . وموظفيه . تحس بهم وكأنها عاشرتهم سنوات طوال، تعرف أن رئيس الشركة قصير وممتلىء وكرشه يخرج دائماً من تحت البلوفر. وأن مدير مكتب ابنها طويل جدا لدرجة مثيرة. تعرف هذا من كثرة حديث منصور عنهم.

تعيش مع ابنها فى ذلك القصر الكبير المحاط بحديقة كبيرة. تزوج أبناؤها واحد وراء الآخر. وتبقى منصور وحده رغم أنه الأكبر.

تأتيه بعد الغداء بشايه. تعرف أنه يشربه بدون سكر منذ أن أصيب بداء «السكر».

يكمل حديثه لها:

- يقولون أن رئيس الشركة سينقل.

- من «بقك» لباب السماء.

تعرف هى أن ولدها أحق منه برئاسة الشركة وأمهر منه. لكنه استطاع بأساليب ملتوية أن يحصل على المنصب. فأساء معاملة ابنها. حتى أنه يعود فى معظم الأيام غاضبا مغتما.

يصمتان للحظة. تتذكر الأم أن ذلك الرئيس ليس أول من اغتصب المنصب من ابنها:

أول مرة حدث هذا كان منذ أكثر من عشرة سنوات. جاءها يومها غاضبا وصاح فى أسى.

- أنا أحق منه. أعمال الشركة كلها فى يدى.

وبقى ذلك الرئيس ثلاث سنوات. ثم جاء آخر وآخر وابنها كما هو مدير الإنتاج فى الشركة. لهذا لم تحدثه كما كانت تفعل بعد ذهاب كل واحد منهم.

قال فى أسى وهو يعطيها كوب الشاى الفارغ.

- المسئولون فى وزارة الصناعة لا يحبوننى. يحقدون على لأصلى الطيب.

وأكدت هى على قوله:

ـ لا تهتم . أنت لست فى حاجة إلى هذا المنصب.

يسرع لحجرة نومه. يشد الغطاء حول جسده، تدخل ـ هى ـ بعد لحظات لتتأكد من أنه قد نام. وأن الغطاء يشمل جسده كله.

القصر كبير عليهما. حجراته كثيرة. ليس بها سواهما. أبناؤها الآخرون لا يهمونها مثله. فقد تركوا القصر وتزوجوا، ولديهم الآن زوجات ترعاهم وأطفال يملأون عليهم البيت.

لكن هو لم يبرح القصر. مازال فى حاجة إليها.

تأتى خادمة عجوز من وقت لآخر لقضاء حاجتهما، وأخرى تأتى يوما واحدا فى الأسبوع لتغسل الغسيل. فيما عدا هذا لا يزورهما أحد. حتى الأبناء لا يأتون إلا فى المناسبات.

المرأة عجوز، لكنها شديدة متماسكة. أحيانا تحس بأنها غير قادرة على الحركة. وأنها فى حاجة إلى النوم لكن عندما تتذكره تسرع لقضاء حاجته.

تتمنى الأم أن تجد زوجة له. هو أيضا لم يفقد الأمل فى ذلك رغم تعديه الخمسين بسنوات قليلة. تذكر ـ وهى ـ حماسه للزواج بعد زواج كل ابن من أبنائها. ينظر إلى القصر وأثاثه القديم وفراشه الذى أصابه البلى. ويسألها عن أنسب ألوان الطلاء للشقة. وعن النوع المناسب لكساء الفرش. ينسيان فى ذلك الوقت الحديث عن الشركة ومشاكلها. لكن بمرور الأيام تهبط عزيمته وتفتر. ويعودان ثانية لما كانا عليه.

يصحو بعد ساعتين تقريبا. يغتسل ويصلى العصر. ثم يدخل الحديقة (إذا كان الوقت صيفا) - يجلس على مقعده، يقرأ الجرائد التى لم يكمل قراءتها فى الصباح. ثم تأتيه أمه بشايه.

فى الشتاء يجلس فى الصالة. وتضع أمه المدفأة الكهربائية قريبة منه.

يخرج أحيانا فى المساء. يرتدى بذلته الكاملة والكرافتة حتى لو كان الجو حارا. يذهب إلى قهوة المعلم عمران القريبة جدا من القصر. يقف له كل من فى القهوة احتراما:

- تفضل يا سعادة البك.

يتفضل أحيانا ، ويجلس بينهم . يأتيه عمران صاحب القهوة:

- شرفتنا يابك.

تقترب المقاعد من مجلسه. يحيطيون به، يسألونه عن السياسة. وعن كل ما يسمعونه فى نشرات الأخبار. ويحدثهم. حتى الراديو يسكتونه . الشبان الذين كانوا قبل أن يأتى يرمون زهر الطاولة ويتصايحون. يتهامسون الآن.

يأتى الساقى بالشيشة المخصصة للبك. والتى يضعها عمران فى دولاب ولا يخرجها منه إلا إذا ما طلبها البك. يغير المعلم عمران فحم الشيشة بنفسه.

يتحدث هو عن كل شىء . الموضوع الوحيد الذى لم يتكلم فيه أبدا هو السبب الذى جعل أباه - الباشا - أن يأتى إلى «غربال» ويقيم فيه قصره.

يحتاج عمران إليه كلما واجهته مشكلة مع الضرائب أو أشغال الطريق أو استخراج رخصة. فمعارف البك كثيرة . يخرج كرتا صغيرا من جيبه. ويكتب على ظهره كلمتين . فينتهى كل شىء.

يتكلف البك فى جلسته هذه بعض النقود القليلة. فيحدث أحيانا أن يسأله بعض رواد القهوة سلفة: خمسة جنيهات أو أقل . ويدفع البك.

يحدث هذا فى غياب المعلم عمران. ويؤكد المقترض على البك بألاّ يخبر عمران بهذا. ويبتسم البك ويومئ برأسه وهو يعلم أنه لن يأخذ هذا المبلغ ثانية ، حتى لو أراد المقترض رده.

عندما يعود فى المساء إلى أمه يحكى لها عن هذا . تسأله عن أوصاف هذا المقترض. فربما قد رأته من قبل من خلف سور الحديقة حتى تبدى رأيها فيه. إن كان يستحق الإحسان أم لا.

يطيلان الحديث فى هذا الموضوع. وينتهى النقاش بأن ما فعله ابنها خيرا، حتى يحبه الناس فى القهوة ولا يحقدون عليه لمكانته الاجتماعية وغناه وأصله العريق.

وتفيده جلسته فى القهوة أحيانا. فالكل يعمل لأمه ألف حساب. فإذا ما أطلت من فوق سور حديقة القصر، يسرع البعض سائلين

عما تريد. وإذا ما جاء الأطفال الأغراب عن الحى للعب الكرة أمام القصر يسرع من فى القهوة لطردهم. أو يحتاج البك إلى بعض الحرفيين لترميم القصر وإصلاح بعض الأشياء فيه فيقوم عمران باللازم.

يتساءل البعض عن سبب قدوم الباشا الكبير لبناء قصره فى هذا المكان الشعبى.

يردد بعض الشيوخ من عاشروا ذلك الوقت:

أن القصر لم يكن حوله أيام بناه حيا شعبيا كما هو الحال الآن. بل كان جزءًا من حى محرم بك الذى كان راقيا وقتذاك. وفى منطقة مجاورة منخفضة قليلا، كانت توجد أراض زراعية تصل إلى ترعة المحمودية مملوكة لإقطاعى كبير اسمه «غربال» باع تلك الأراضى مقسمة لتتحول إلى أراضى سكنية. فجاءها من نزحوا من القرى ـ خاصة الصعيد ـ وأقاموا بها وكونوا ذلك الحى الشعبى. ثم ضاقت بهم الأراضى الزراعية الجديدة فصعدوا إلى أعلى وسكنوا حول القصر فيما بعد ثورة يوليو ٥٢. حيث لا يدافع عن الباشا أحد.

ويؤكد آخرون أن الباشا الفندور ـ والد منصور ـ كان متزوجا من امرأة من طبقته . لكنه عشق خادمته وهام بها . فجاء إلى هذا المكان البعيد وأقام قصره هذا. وأن تلك الخادمة هى أم منصور. وأن الباشا لم يكن يأتى إلى قصره سوى أيام معدودات فى الشهر.

وفى آخر أيامه لم يكن يأتى إليه قط. ولهذا السبب لا يتحدث منصور عن والده الباشا.

تتردد تلك الحكايات فى قهوة عمران. لكن لا يستطيع أحد أن يذكرها أمام البك. ولاحتى أمام المعلم عمران. الذى يحرص دائماً على إرضاء البك وعدم إغضابه. فيكفيه تشريفه لقهوته بجلوسه فيها.

لم يشتر منصور سيارة رغم ما لديه من أموال طائلة. ورغم أن أخوته الأصغر يمتلكون سيارات. هو لم يتعلم القيادة ولا تستهويه، ويظن أنه لن يتعلمها أبدا لأنه دائم الشرود.

يسير كل صباح من شارع حافظ قبطان حتى آخره. يقف على ناصية شارع «الحضرى» فتأتيه سيارة الشركة يركب بجوار السائق تاركا المقعد الخلفى خاليا. لو أراد لجاءه السائق وانتظره أمام باب قصره. لكنه لا يحب أن يدخل أحدا - من الشركة - فى عالمه الخاص. كما أنه يرتاح للسير فى الصباح.

وإذا أراد قضاء حاجة له . يأتيه سائق تاكسى - من رواد قهوة عمران - أتفق منصور معه، على أن يأتيه كلما أراده.

يقضى منصور - فى بعض الأحيان - اليوم كله مع ذلك السائق . ويدفع له بسخاء . والسائق لا يطلب المزيد. كما أن المعلم عمران يوصيه دائما بحسن معاملة البك. وأنه لو دفع له أجرة أقل من المطلوب، لا يطالبه بشىء . فعمران سيقوم بدفع ما يريده.

وحدث ما لم يكن منصور يقدره ويفكر فيه . جاء عادل - مدير مكتبه - إلى قصره، هكذا دون سابق إنذار أو مقدمات . فهو يعرف العنوان من كثرة ما كتبه فى مراسلات منصور.

فتحت أم منصور الباب. فوجدت أمامها ذلك الطويل. عرفته دون أن يذكر اسمه . وذلك من وصف ابنها له. سأل عن منصور . فأرسلته المرأة إلى قهوة عمران القريبة جدا من القصر.

أسرع عادل إلى القهوة . فالأمر لا يتحمل الانتظار إلى الصباح. فقد كان فى القاهرة فى مهمة رسمية وعلم فى مبنى الوزارة أن اسم منصور ضمن المرشحين لرئاسة الشركة. ولابد أن يسعى البك ليفوز بهذا فهو أحق من الباقين لخبرته وأقدميته فى الوظيفة.

وجد عادل البك جالسا فى القهوة، ذراعه على المائدة والشيشة فى اليد الأخرى. ورجال بجلابيب يجلسون حوله، ورؤوسهم مشرئبة له لسماع حديثه . ووقف البك مندهشا . نسى عادل أن يجيب ويحيى من معه . ألجمته الدهشة . قال البك:

- تعال يا عادل . أتفضل .

وقف الجميع لتحية ضيف البك وابتعد أقرب جالس منه مفسحا المكان لعادل . وأسرع ليأتى بمقعد آخر:

- خطوة عزيزة . الحمد لله على سلامتك.

اومأ عادل برأسه . قال البك للرجال حوله:

ـ عادل مدير مكتبى.

ابتسموا له . وأسرع أكثر من واحد لإحضار مشروب له . واخرجوا سجائر قدموها له . ومنصور قلق من حضوره هكذا.

ـ هل حدث شىء فى القاهرة؟

ـ سأحدثك فى ذلك بعد قليل.

أسرع البك إلى الجمع حوله . وأكمل لهم القصة التى كان يحكيها فى فتور. ثم وقف البك واستأذن ـ فصافحه الرجال ـ كعادتهم ـ فى كل مرة يجالسهم فيها. وصافحوا عادل أيضا.

دخلا باب القصر . كان عادل واجما شاردًا.

ـ تفضل يا عادل.

ما أن استقرا فى حجرة المكتب حتى صاح عادل منفجرا:

ـ اسمح لى يا منصور بك، ما رأيته أدهشنى . كيف تجالس هؤلاء ، أنهم لا يناسبونك.

ـ عادل أرجوك.

ـ اسمح لى يا منصور بك، أنت مرشح لرئاسة الشركة.

فوجىء منصور:

ـ من أخبرك بهذا؟

ـ قرأت المذكرة المقدمة لسيادة الوزير.

- حقا ؟!

أحس منصور أنه قد أفرط فى إبداء فرحته ، فاعتدل فى جلسته وتحدث بلا حماس:

- هل فرصتى أحسن من الآخرين؟

- هذا يتوقف على تصرفات سيادتك.

- تصرفاتى ، ماذا بها؟

- للوزارة جهاز متابعة، يسأل عن المرشح لوظيفة كبيرة : حالته المالية ، كفاءته ، وضعه الاجتماعى.. الخ.

- الحمد لله ، تصرفاتى لا غبار عليها . فأنا لا أسكر ولا ألعب القمار.

صاح عادل فى جرأة أغضبت منصور:

- هؤلاء الذين تجالسهم فى القهوة أكثر شبهة من «السكر» والقمار.

لم يجبه منصور . شرد غاضبا . فهؤلاء لا يسمح لأحد بالتدخل فى خصوصياته. كما أن عادل مجرد مدير لمكتبه فكيف يجسر ويتحدث معه هكذا؟!

أحست الأم - وهى تحمل أكواب الشراب - بأن ابنها مهموم. أرادت أن تتدخل فى الحديث. لكنها رأت أن تنتظر حتى يذهب عادل هذا الذى أغضب ابنها.

ـ وماذا ترى يا عادل؟

ـ لو سيادتك تريد أن تبقى على هذه الشلة. على الأقل تبتعد عنها مؤقتا، حتى يصدر قرار التعيين.

رأى منصور أن هذا ليس صعبا . فشهر أو أكثر يبتعد فيه عنهم ليس بالمشكلة . فهو يسافر ـ أحيانا ـ إلى أوربا فى مهمات خاصة للشركة. أو مع أمه لزيارة شقيقه الذى يعيش هناك. ويبقى لديه بالشهر والاثنين.

أحس عادل بأن منصور قد وافق على طلبه . فزاده هذا جرأة . فأكمل:

ـ ولابد أن تنهج نهجاً آخر.

ـ ماذا ؟!

ـ تتصل بشلة أخرى تساعدك للوصول إلى المنصب.

ـ أية شلة تقصد؟

ـ رؤساء الشركات ووكلاء الوزارات ومن فى مستواهم لهم أماكنهم التى يسهرون فيها. أبحث عنها وجالسهم .

ـ لا . لا أحب هذه الجلسات.

ـ لابد من هذا وإلا ضاعت الوظيفة.

لم يرد منصور . فأحس عادل بأنه نجح فى مهمته.

قام منصور متأخرا هذه الليلة . وأمه العجوز قاومت النوم من أجله . وسهرت بجواره . كان من رأيها أن يبتعد عن قهوة عمران لحين صدور قرار التعيين. وأن يذهب ليبحث عمن فى أيديهم الأمر. فيذكرونه فى مجالسهم ويدافعون عنه إذا ما زاحمه أحد فى المنصب. ثم يعود بعد ذلك إلى الحياة التى اعتداها وارتاح لها.

أكد عادل لمنصور أن سبب تأخره فى المرات السابقة هو اتصاله بشلة قهوة عمران . وأن عليه من الآن البحث عن شقة بعيدة عن ذلك الحى الشعبى.

لم يتحمس منصور لهذه الفكرة . ولم يناقشها مع عادل.

اتفقا على السهر فى ناد راق مشهور يجتمع فيه عدد كبير من كبارالقوم.

أحس منصور ـ فى أيامه الأولى ـ بالغربة وسط الشلة الجديدة. إنهم يتحدثون فى أشياء جديدة لا يعرف عنها شيئاً، أسماء السيارات العالمية، وعن الشقق التى ارتفع ثمنها ، والبارفانات . ومواضيع أخرى أكثر سخافة. عندما تحدثوا فى السياسة، أراد أن يقول رأيه كما كان يفعل فى قهوة عمران. لكن صوته ضاع بين أصواتهم الكثيرة . أحس بالحرج . نظر إلى عادل وجده مشغولا بمتابعة الآخرين.

تابع منصور عزيز بك . قصير وشاربه أبيض . بينما شعر رأسه كله أسود، ورفيقه وحيد الذى يبدى ضعفا أمامه قال عادل عنهما:

ـ وحيد هذا مدير إدارة فى الشركة التى يرأسها عزيز. لكنهما أصدقاء ويقضيان سهراتهما معا.

يعود منصور فى كل ليلة متأخرًا . يجد أمه جالسة فوق مقعدها متهالكة. تنظر إليه فى أسى . تود لو اعترضت على سهره الدائم هكذا . لكن أحساسها بحاجة ابنها إلى الوظيفة الكبيرة يجعلها تصمت.

يتناول منصور عشاه خارج القصر مع الشلة . ويدفع مبلغا كبيرا ثمنا لهذا العشاء. فقد ألح عادل عليه بأن ينفق بسخاء على الشلة حتى يكسبهم إلى صفه ليتحدثوا عنه بالخير أمام سيادة الوزير. لهذا كان يأخذ معه كل ليلة مبلغاً كبيراً تحسباً لهذه النفقات الجديدة.

بعد أسبوع تقريبا من اتصاله بالشلة الجديدة تحدث وحيد عن زوجته (التى لم تكن موجودة حينذاك) قال:

ـ عزيز بك لم يشرب قهوة فى حياته مثل التى تصنعها آمال زوجتى.

وعزيز يومىء برأسه دون قول. ولما أطال وحيد فى الحديث عن قهوة زوجته . صاح عزيز فيه :

ـ أنك تريد أن تؤثر على الموجودين ليذهبوا معنا إلى بيتك.

ـ سأكون سعيدا لو حدث هذا . وستسعد آمال كثيرًا.

وانتقلت المجموعة كلها إلى بيت وحيد. لم تكن آمال على قدر كبير من الجمال. كانت متصابية وتضحك كثيرا وبصوت مرتفع وبطريقة تلفت الأنظار إليها.

جلسوا جميعا فى الصالون . ودخلت الخادمة بالقهوة . بعد أن تذوق منصور رشفة منها قال لعادل:

- إنها قهوة عادية، بل أن ساقى قهوة عمران يعد لى قهوة خيراً منها بكثير.

لم يجبه عادل بشىء .. ثم وقف عزيز قائلاً:

- هيا بنا .

ظن منصور أن السهرة قد انتهت بعد رشف القهوة. وأنهم سيعودون إلى بيوتهم . لكنهم دخلوا حجرة أخرى وجلسوا حول مائدة كبيرة. ثم أتت آمال بورق اللعب. وأخذت تداعبها بأصابعها فى مهارة . صاح منصور فزعاً .

- قمار؟!

سمعه كل الحاضرين . نظروا إليه فى دهشة . وشد عادل على يده أسفل المائدة ليصمت . أخرجوا نقودهم وضعوها على المائدة . قال عادل:

- اخرج نقودك.

نظروا إليه جميعا فى دهشة . لأنه لم يخرج النقود مثلهم . أعاد عادل عليه القول . أضطر أن يفعل . وضع النقود على المائدة . أعطته آمال أوراقا ، لمسها بأصابعه مثلما يفعلون. ثم نظر حوله . لكنه لم ير شيئًا. فقد كان واجما شاردا . لم يشرح له أحد طريقة اللعب. ولو شرحوا وأطالوا جميعا ما فهم شيئًا.

أخرج نقودا كثيرة. والمرأة تأخذها ، وعادل يكرر:

ـ أخرج النقود .

قدمت الخادمة الخمر. قال :

ـ خمر ، لا .

نظروا إليه فى استنكار. فصاحت آمال للخادمة وهى تمسك الورق:

ـ أحضرى إليه زجاجة «قازوزة».

هبط درجات السلم وهو مازال شاردا . وعادل يضحك . قال عادل وهما فى التاكسى الذى سيعود بهما إلى البيت:

ـ سهرة جميلة . أليس كذلك؟

ما خسره الليلة يكفى نفقاته هو وأمه لشهور عديدة قال :

ـ والنقود الكثيرة التى خسرتها؟

ـ ليس مهما . لابد من التضحية .

لم يجبه . ظل صامتا طوال الطريق . عندما هبط عادل من التاكسى وحياه لم يرد تحيته.

قبل أن ينام ، كان قد اتفق مع أمه على أن الجلوس فى قهوة عمران - حتى وإن أخرته ، وأضاعت منه الوظيفة خير ألف مرة من سهرات آمال.

الوَحْش

بهرتنا أحداث انتخابات دائرة كرموز بالأسكندرية عام ١٩٧٦، والتى كان رئيس الوزراء فى ذلك الوقت مرشحا فيها، فى أول تجربة للانتخابات الحزبية فى مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

كنا نذهب إلى شارع راغب (وهو الشارع الكبير الذى يفصل كرموز عن حى محرم بك) وندهش لما نراه أمامنا: * شاب صغير مستقل، مرشح عن العمال . له أتباع محبون ومعجبون، كلهم تقريبا من الشباب الصغير يدخلون الشادر المعد لرئيس الوزراء والمفتوح من الناحيتين، فيصيحون ساخرين:

ـ شاخورة . شاخورة.

وذلك لأن رئيس الوزراء قد افتتح بمناسبة ترشيحة فى الحى، أكثر من فرع للمحلات العامة التى تبيع الملابس والأحذية المدعمة. وأكثر من مجمع استهلاكى، يبيع السلع الغذائية المدعمة لأهل الحى؛ خاصة سمك الشاخورة المجمد الذى يستوردونه من روسيا

ويباع بقروش قليلة. وقد كانوا قبل ذلك يحصلون عليه بصعوبة، ويأتى إلى المجمعات الاستهلاكية بالصدفة.

ويهتف أنصار ذلك المرشح الشاب ضد الحكومة بطريقة لم نعهدها طوال حكم الثورة.

بينما رئيس الوزراء يقف وسط الشادر الكبير، بقامته المديدة العريضة. وحلته السوداء البراقة. وحوله بعض المسئولين، بعضهم يرتدى الملابس العسكرية ذات الرتب العالية . وبعض الجماهير تهتف وهم جلوس على المقاعد.

معظم الرجال الموجودين يعملون فى شركة الغزل بكرموز، (التى لعبت دورا هاما فى الانتخابات حتى قبل الثورة). فالعاملون فيها يسكنون فى الحى نفسه. ويمثلون النسبة العظمى لسكانه. فلو اتفق العاملون فيها على مرشح محدد، سيكسب لاشك، لذا تقدم أكثر من رئيس لها فى الانتخابات ونجح. بل أن المرشح الشاب المعارض (الذى نتحدث عنه) من العاملين بالشركة. ومعظم مؤيديه من الشباب العاملين بها.

ولقد نظم رئيس الشركة فى ذلك الوقت حملة دعائية لصالح رئيس الوزراء. وأعطى للعديد من العاملين أجازة مفتوحة مدفوعة الأجر. للتفرغ لعمل الدعاية لرئيس الوزراء.

ووقف أحد العاملين، وهو ممتلىء وطويل، وأخذ يصيح ويهتف لرئيس الوزراء. وردت الجماهير عليه ثم خرج من صفه وسار حتى

وقف وسط المسئولين الكبار. وأخذ يزاحمهم، وهم ينظرون إليه فى ابتسامة حائرة . يريدون أن يبعدوه عنهم. ورؤية الجماهير لهم، تمنعهم من ذلك.

وتحفز الجهاز الخاص بالحراسة. وتحركوا مسرعين، فقد يكون هذا الرجل مندسا لإيذاء رئيس الوزراء، لكن الرجل كان لاهيا عنهم. وعازما على أن يصل إلى رئيس الوزراء. وعندما وصل إليه أخذ يصفق بيديه الكبيرتين ويهتف:

ـ حلو يا وحش ، حلو يا وحش.

نظر الرجل إليه مندهشا، وتوقف عن حديثه للجماهير. وابتسم البعض من شدة المفاجأة. وهمس البعض متسائلا عما يكون هذا الإنسان.

كانت المحافظة كلها مشغولة بانتخابات رئيس الوزراء، والحديث يدور بين المسئولين كل وقت عن هذه الانتخابات. وفرض ذلك الشخص نفسه على هذه الأحاديث، يتساءلون عنه وعن دوره. وتصرفاته بل إن رئيس الوزراء نفسه. سأل عنه . فى أول الامر ظنه من قبل المعارضين، مرسل لإفساد حملته الانتخابية لكن حماسه من أجله جعله يظن ظنا آخر.

ثم شغل ذلك الشخص أجهزة المحافظة. اسمه، عمله، أسرته ، واتضح الآتى:

يعمل هذا الرجل مساعد كومنده فى شركة الغزل. ويسكن حى جبل ناعسة المشهور بتجارة المخدرات، واسمه حسن بتاع العوالم. ذلك اللقب ليس مدونا بالطبع فى سجلات الشركة، لكن اشتهر به لعمله فى المساء، صاحب فرقة عوالم تحيي أفراح العاملين في الشركة، وأفراح أهل الحى الذى يسكنه.

واتضح انه له شقيقاً يعمل في تجارة المخدرات. وسبق القبض عليه أكثر من مرة.

منذ أن أعلن عن تقدم رئيس الوزراء لترشيح نفسه في حي كرموز. وحسن يحلم بأن يستفيد من هذه الفرصة. طلب من رؤسائه أن يسمحوا له بالتفرغ لعمل الدعاية لرئيس الوزراء مثل الآخرين. لكنهم لم يسمحوا له بذلك. فتصرف هو من نفسه: امتنع عن إحياء الحفلات فى هذه الفترة. وكل ليلة يسأل عن برنامج الدعاية، ويذهب إلى هناك ليقوم باللازم.

يندس وسط الجماهير ويسير مع المفوضين من الشركة لعمل الدعاية. وعند زيارة رئيس الوزراء للشركة، لم يهتم برؤسائه. ولا برئيس الشركة نفسه وأسرع إلي رئيس الوزراء. وضمه لصدره. وسار بجواره ، وهتف له هتافه المفضل : حلو يا وحش.

تم عرض أمر حسن على الأجهزة المعنية بالدعاية لرئيس الوزرء. هل يمكن الاعتماد عليه مثل غيره من العاملين فى شركة الغزل، أو لا. وكان نتيجة العرض: رفض هذه الفكرة بسبب عمله

مع العوالم. وعمل شقيقه في الاتجار بالمخدرات. فالمعارضون من الممكن أن يتخذوه مادة للنيل من رئيس الوزراء.

فى ذلك اليوم الموعود. جلس حسن وسط عمال شركته الموفودين من قبل الشركة لعمل الدعاية. لم يتحدث مع أحد. فكر في نتيجة عمله هذا. أنه يخسر كل ليلة، يضحي بالمال الذي كان يأتيه من إقامة الحفلات: الأجرة من أصحاب الحفل والنقطة وللآن لم يتضح شيء لم يكتب اسمه ضمن المفوضين من الشركة لعمل الدعاية. ولم يقتنع به رئيس الوزراء . بل لم يحس به رئيس الشركة التى يعمل بها . كل ما يوده من هذ كله، أن تعينه الشركة كومنده، أو يعطونه مسرحا لإقامة الحفلات عليه. أو حتى مبلغاً كبيراً يساعده على المعيشة.

وعندما اقترب موكب رئيس الوزراء. (وذلك يبدو من التحركات غير العادية التي تحدث كل ليلة: ضباط ومباحث يأتون لتأمين المكان ، وسيارات بوليس تقف قريبا من الحفل) حينذاك خرج حسن من بين الجماهير ووقف.

وبدأ الاحتفال. فوقف رئيس الوزراء يخطب. وأسرع حسن ككل مرة. واقترب منه. حتي صار كتفه ملاصقا لكتف رئيس الوزراء. وقد كان في نفس طوله تقريبا، ومرتديا ملابس أنيقة فبدا وكأنه أحد المسئولين، ولكنه صفق بيديه الكبيرتين وصاح: «حلويا وحش».

فتوقف رئيس الوزراء عن القول، وأبدى ضيقه مما يحدث. فاسرع المسئولون بالتقاط الاحساس. وأرساله إلى رجالهم. وصفق حسن وصاح وضحك زملاؤه من تصرفاته.

أحس الضباط بأن الأمر قد زاد عن الحد. ولابد من أن يتدخلوا. فوقف أحدهم. (وكان يرتدى بذلة مدنية) وسار حتى وصل خلفه. فربت على ظهره وقال :

- أخرج من الزحام دون أن يلحظك أحد. فوجىء حسن بهذا . ما الذى يغضبهم، أنه يحيى رجلهم . ويعمل له الدعاية المناسبة؟

- ماذا؟

- أخرج من الزحام دون دوشة.

يعرف حسن انهم قادرون على إيذائه. وأنه لابد أن يطيعهم، فخرج والرجل خلفه والكل منشغل عنه، حتى زملاؤه لم يكتشفوا ما حدث.

ابتعدا عن الحشد. صاح حسن:

- ماذا فعلت يا باشا؟

سار حسن والضابط خلفه. وتبعه بعض الجنود. كانت عربة الشرطة تنتظره. دفعوه إليها، فركبها صاغرا وأحاطوا به. وسارت السيارة، وقبل أن تجتاز شارع (١٢) (وهو يؤدى إلى قسم شرطة كرموز) صاح الضابط:

ـ إلى أى مكان تريد أن تذهب. مديرية الأمن . أم قسم كرموز؟

ـ يا باشا أنا أحيى رجلكم. أريد أن أشرفكم. ليحس أن في الإسكندرية رجال تحبه...

صاح الضابط مقاطعا:

ـ ليس هناك فصال . ما الذى تختاره؟

قال فى أسى:

ـ إن كان ولابد. فأفضل قسم شرطة كرموز، فهو قريب من البيت.

ودخلت السيارة شارع ١٢. وقبل أن تصل إلى مقلة لب هناك. صاح حسن لصاحبها:

ـ يا جورج ـ يا جورج ـ

توقف السائق بأمر الضابط الذى يجاوره،

ـ أنا حسن، بتاع العوالم، أرسل إلى زوجتى وأخبرها بأننى محجوز فى قسم كرموز.

كان الابتسام يهاجم الضابط، ويحاول أن يبعده. لكن الباقين ضحكوا.

وانتبه صاحب المقلة إليه. وتأكد من منظره . فعرفه. فحسن زبونه ، وزوجته ـ أيضا ـ زبونته دائمة الشراء منه.

لكزه الضابط فى صدره:

- رئيس وزراء قد الدنيا . وتقوله يا وحش؟!

- لم أكن أعلم أن فى هذه الكلمة إساءة.

بعد ساعات قليلة، وكان الفجر قد اقترب. جاءت زوجة حسن إلي قسم الشرطة ومعها أولادها الذين قد أيقظتهم من نومهم عندما أخبرها «مرسال» جورج بذلك.

دخلوا قسم الشرطة ، ثم حجرة الضابط المسئول وقتذاك. وبكت وبكى الأولاد . وقالت:

- يا باشا هو «مدب» لكنه لا يقصد الإساءة.

وانصرف حسن مع زوجته وأولاده. بعد أن أقسم - أمام الضابط - أن يبتعد كلية عن عملية الانتخابات وكفاه ما حدث.

فى العودة فكر فى آخر حفل عرض عليه ورفضه.لابد أن يفاتح أصحابه فى أمره فقد يكونوا - للآن - لم يتفقوا مع فرقة عوالم أخرى.

الأستاذ

فتحت أمه الباب لى. هو عادة ما يكون متواريا فى حجرة مغلقة خوفا من تيارات الهواء، فإذا ما كان موجودا بالصالة وسمع صوت جرس الباب، أو أرادت أمه أن تخرج، أو تقضى حاجة خارج الشقة تحذره لكى يسرع إلى حجرة مجاورة لتفادى الهواء القادم من خلال الباب المفتوح.

ـ تفضل ، سيأتى الأستاد بعد قليل.

وأشارت إلى الحجرة التى عادة ما نجلس فيها معا . جاء ببيجامته ذات الخطوط الحمراء . وطاقية من نفس نوع قماش البيجامة. صافحنى وجلس بجوارى قرأت عليه قصة انتهيت من كتابتها بالأمس فقط.

يشرد ـ أحيانا ـ بعيدا عنى وأفاجأ به يسألنى أسئلة بعيدة عن القصة فيسأل عن عنوان مجلة تنشر قصصا، أو رقم تليفون مسئول فى مجلة أو جريدة.

فى تلك الليلة شكا لى من آلام فى بطنه. وأنه منذ أيام لا يأكل ألا سلطانية زبادى وينام. وكان يوصى أمه بإعداد كوب شاى بلبن له. وكوب شاى ساده لى دون أن يسألنى عن طلبى.

قرأت له ـ فى تلك الليلة ـ قصصا لكتاب سعوديين أرسلها أصحابها ليكتب عنها وينشرها فى مجلات سعودية تدفع كثيرا. ولم يكن متحمسا ككل ليلة. آثار الارهاق بادية عليه.. قال:

ـ سنكمل فى ليلة أخرى.

فى اليوم التالى اتصل بى تليفونيا فى عملى. قال :

ـ تقيأت دما.

ـ لا تقلق قد يكون نزيفا من الأنف أو الفم.

ـ أننى غير متيقن قد يكون بلح أحمر أكلته.

لم أعط للموضوع اهتماما وظننته يبالغ فيما حدث فهو شديد القلق والحرص على صحته. ومن أين سيأتيه نزيف المعدة. وهو ليس ريفى فيمرض بالبلهارسيا. ولم يذق الخمر ليتأثر كبده. ويؤدى ذلك إلى النزيف. انشغلت بأعمال مهمة. فوجئت بتليفون من أمه تخبرنى بأنه قد دخل مستشفى المواساة.

ذهبت لزيارته فى المساء . لم أصدق ما أراه . فقد شحب لونه وبدا نحيفا ومتعبا وصوته قد تغير أصبح مبحوحا وضعيفا.

جلست على مقعد أمامه، شكا لى من أخيه الصغير «عادل» قال إنه هو الذى رباه بعد موت والده وهو طفل صغير. فعمل «الأستاذ»

بالثانوية فى الجمارك. بجانب دراسته فى كلية الحقوق .. وقد أصيب عادل بمرض غريب. لولا أن أدركه الأستاذ لقضى عليه. أخذه إلى طبيب أجنبى جاء زائرا إلى مصر . وصف له علاجا ثمنه مرتفع كان يأخذ نصف راتبه من الجمارك.

وهاهو الآن يعمل موظفا . وتزوج وأنجب. قلت:

- ماذا فعل لك؟

- طلبت منه أن يتبرع لى بالدم كطلب الطبيب المعالج لكنه امتنع وأصر على الرفض.

- قد يكون مريضا أو متعبا.

- قال فى حدة ، وأراد أن يكون صوته قويا وعاليا:

- لا ، زوجته هى التى حرضته، هى تريده أن ينام معها كل ليلة.

قلت منهيا الحديث الغاضب:

- لو أردت دما، فأنا على استعداد.

وشرد قليلا ، ثم ضغط على الجرس. جاءته الممرضة. قال:

- صديقى ، يريد أن يتبرع بالدم لى.

لم تكن الممرضة متحمسة للوقوف أمامه، وغير راضية على مواصلة الحديث، قالت:

- ينزل لبنك الدم فى الدور الأرضى، وسأحدثهم بالتليفون.

وقفت استعد للنزول فقال:

- عد إلى ثانية أريدك.

ممرضة بنك الدم لم تكن راغبة فى العمل . فالوقت متأخر ولا يأتيها أحد فى المساء. قالت:

تعال فى الصباح أحسن لك.

- لكننى مشغول فى الصباح.

أشارت إلى سرير بجوار الحائط. ملاءة متسخة ومترهلة . كانت القطط تمرح فوقها. عندما رأتنى أسرعت إلى الخارج. نمت فوق السرير دون أن أخلع حذائى. لم أكن مرتاحا فى النوم. تابعت شجار القطط الكثيرة حول «سلال» المهملات المقلوبة والمتناثرة محتوياتها داخل الحجرة... علب عصير فارغة، وبقايا مناديل ورقية وبقايا طعام.

تقززت من رؤية الأشياء، وتمنيت أن أسرع إلى الشارع. أن ابتعد عن هذه الحجرة وأجىء فى الغد - صباحا- فحتما ستكون الأمور أحسن بكثير.

بعد أن أنهت الممرضة عملها. أسرعت إلى السلم . وجدته بجانبه - فوق الكومدينو - طبق من العنب الأحمر ذى الحبات الكبيرة. قال:

- أخذوا الدم منك؟

ـ نعم .

ـ شعرت بشىء؟

ـ كل شىء على ما يرام.

قدم طبق العنب لى، أكلت حبات لا تزيد على الأربع. واستأذنت. عدت إلى البيت. لم أكن متعبا ولا مرهقا. لكن ما رأيته فى حجرة نقل الدم أشعرنى بالقرف والخوف من التلوث.

ذهبت إليه فى المستشفى عدة مرات. كان فى كل مرة يزداد شحوبا ونحافة وصوته يزداد خفوتا ثم انتقل إلى البيت. كنت أذهب إليه كل يوم تقريبا. أدخلنى حجرة نومه التى لم أرها منذ أن عرفته كان يدخلها ويغلق بابها خلفه. وأنا جالس فى الصالة. توقعت أن تكون غاية فى النظام والثراء.. إذ بى أجدها أكثر فوضى من باقى الحجرات: كوم الورق والخطابات الواردة اليه من المجلات.. والجرائد والبنوك تملأ المكان . وكتب ومجلات وعلب أدوية فارغة.

وجدته نائما على السرير ولحيته متناثرة. بكى أمامى (أول مرة أرى لحيته هكذا. وأرى دموعه) قالت امه:

ـ لن أنسى ما حييت وقوفك معه وتبرعك بالدم له.

لم أجبها . كنت حزينا من أجله. فهو يتآكل يوما عن يوم.

أرسلت أمه شقيقه الطبيب إلى امرأة عجوز ـ قريبتهم ـ لكى تدعو له بالشفاء، وإلى رجل سره باتع لعمل حجاب له. الغريب انه لم يعترض على هذا ، كان يتلهف على الشفاء بأى طريقة كانت.

واتفقت أمه مع بقال مشهور فى الحى. بتوزيع مواد غذائية قيمتها تصل للخمسة جنيهات إلى المحتاجين والمعوزين. لكن الرجل رغم هذا كله مات. اتصلت أمه بى فى البيت. وقتها كنت فى العمل - قالت إنه مات. وإن العزاء فى قاعة المناسبات بالمنارة . ذهبت فى المساء إلى هناك. لم أجد «عزاء». وجدت القاعة مظلمة ومقاعد متراصة فوق بعضها استعدادا لنقلها.

عدت إلى البيت سائرا على القدمين، رغم طول المسافة.

فى الصباح لم أذهب إلى العمل ذهبت إلى شقته. كانت بعض النسوة يجلسن فى الداخل باكيات ومتشحات بالسواد. أخذتنى أمه إلى حجرة قريبة من الباب قالت:

- طول عمره حظه سيىء.

- ذهبت فى المساء إلى قاعة المناسبات بالمنارة لم أجد عزاء.

- أخوته متعبون . ولن يستطيعوا الوقوف وتقبل العزاء.

وحكت لى عن النعى المنشور فى جريدة الأهرام. والذى كلفهم ما يزيد على تكاليف العزاء. كان أخوه عادل يسير فى الشقة الواسعة والكبيرة فى هدوئه المعهود فيه.

عندما صافحت المرأة إيذانا بالانصراف، سار خلفى. وخرج معى . ظننته خرج ليودعنى. لكنه أمسك بيدى قريبا من السلم وقال.

- تعال خذ الكتب. تريد أن تنظف الشقة.

الزائـر

كنت أجلس إلى مكتبى منهمكا فى عملى ففوجئت به أمامى بقامته الطويلة الرشيقة وشاربه المصفوف بعناية قال : أنا من شركة الغزل والنسيج.

ـ ابتسمت له وأتيت له بمقعد فجلس أمامى، قلت : قبل التحدث فى العمل ماذا ستشرب؟

ـ ابتسم ودهش من المعاملة الحسنة التى عاملته بها، فعلى الأقل انتظر حتى أعرف ما يريد قال بعد اعتذارات كثيرة.. قهوة مضبوط.

ـ أراد أن يعود للمهمة التى جاء من أجلها ففتح حقيبة صغيرة وأخرج ورقة مطوية. قلت:

ـ أعرفك منذ سنوات طويلة عندما كنت تلعب الكرة الشراب فى شارع محمد باشا يكن، أمام مدرسة التعاون... اتسعت ابتسامته وقال : ياه .. أيام بعيدة.

كنت صغيرا وقتذاك وهو بقامته الطويلة الرشيقة جسده يتصبب عرقا وبنطلونه متسخا من التزحلق والنوم على الظهر لرد

الكرة إلى الخلف. الكل يخافه ويحسب له الحساب فهو سريع الغضب. وإذا ما تشاجر لا يقدر عليه أحد فوالده يمتلك محلات كثيرة لبيع أدوات المعمار: البويه والمسامير الخ، وعمالهم كثيرون هذا غير أخوته وأصدقائه وقتها كان مغلوبا والمتبع أن يخرج الفريق المغلوب ليلعب فريق آخر، لكنه صعب عليه أن يغلب وأصر على أن يلاعب الفريق الغالب مبارة أخرى ناسفا النظام المتبع.. وعندما نزل الفريق الذى عليه الدور فى اللعب صاح فيهم مستخفا.

- يا للا ياكسكسى على حمصى.. وابتعد أفراد الفريق دون قول. واضطر الفريق الغالب أن يلاعبه ثانية.

- قال : أنا أعمل مدير إدارى فى شركة الغزل والنسيج واكتشفت أن ورق الدشت الوارد منا لكم، تشترونه بمبلغ قليل جدا.

- عندك حق. السعر قليل بالنسبة للأسعار الحالية لكننا لا نرفع السعر إلا للذى يطلب.

- لقد عنفت موظف الأرشيف المسئول عن ذلك.

- أخرجت من مكتبى القرار المنظم لشراء الدشت من الشركات التابعة لوزارة الصناعة والسعر فيه لا يقل عن المائة جنيه للطن الواحد قلت: يمكنك أن تستند إلى هذا القرار وتطالب بما فيه.

- وضع القرار فى حقيبته الصغيرة فرحا، حكى لى أن اهتماماته الكثيرة فى الشركة وأن الرئيس بنفسه هو الذى أوصاه بإنهاء هذه المشكلة، وحكى لى عن تجربته عندما تقدم للانتخابات عن دائرتنا

فى مجلس الشعب وتذكرت حينذاك أنه فعل ذلك حقا وتذكرت منظره وهو سائر ببدلته الأنيقة وسط مشجعيه.. قال أنه أنفق الكثير جدا. وكما قلت فإن والده غنى جدا ويقال أن مصدر ثروتهم من تجارة المخدرات.

- قال : أرسل لى الدكتور «سمير على سمير» (وهو وزير سابق من أصل سكندرى ويتقدم للانتخابات عن العمال لأنه كان يعمل بالثانوية وحصل على مؤهله الجامعى وهو يعمل).

وأكمل محدثى - عرض على عشرة آلاف جنيه لأنسحب من الانتخابات، كنت فى ذلك الوقت قد أنفقت ما يزيد عن السبعة آلاف بقليل لكن عرض الدكتور زادنى تشبثا بإكمال المسيرة فلولا أنه يرانى «ماشيا» ويخاف من أن أنجح ما أرسل إلى عارضا عرضه هذا.. ذلك دفعنى لأن أنفق بسخاء أملا فى الانتصار، والدى اقتنع بهذا وأحس بأن نجاحى فى المجلس سيكون سندا له فى تجارته وبنى آمالا على هذا، فاغلق محلاته وفوض العاملين لعمل الدعاية لى. لم تكن المحلات تفتح إلا لأخذ أشياء منها للدعاية كالبوية والمسامير الخ.. ويوم الانتخابات خرج الكل معى أقاربى وأصدقائى والعاملون فى متاجر أبى وبعض الرجال كانوا يعملون معى بالأجر.. وزعت ممن اثق فيهم على اللجان الانتخابية كل واحد فى لجنة وأخذت أدور على اللجان وأنا متعب صوتى مبحوح وجسدى كله فى حاجة إلى الراحة، لكن الدائرة دارت وأنا داخلها ولا أستطيع

الخروج منها.. ودخلت إلى إحدى اللجان وإذ بموظف من المنتدبين للإشراف على الانتخابات يطوى بعض الأوراق ويضعها فى الصندوق بينما مندوبى غافل عن هذا، .. دخلت وشددت ذلك الموظف من ملابسه (وكانت لجنة الاشراف كلها من كفر الشيخ) وجدت حذاء الموظف ممزقا قلت.. ستظل هكذا ما دمت تقبل الضعف والخضوع لغيرك.. وكدت أضربه لولا أن شدنى ضابط أسرعوا بالإتيان به من الخارج وقال لى رئيس اللجنة:

ـ ما الذى يغضبك؟

ـ لقد وضع فى الصندوق أوراقا باسم الدكتور سمير.

ـ ما عددها؟

ـ لا أدرى لكنها كثيرة قد تزيد عن المائة.

ـ لا تغضب أطوى أنت مائتين ثلاثمائة وضعها فى الصندوق ـ ولم أفعل شردت طويلا ورميت الورق وأسرعت إلى الشارع، طفت على اللجان كلها وناديت المندوبين التابعين لى.. قلت.

ـ لا تتعبوا أنفسكم فليس هناك فائدة.

ـ تكلموا كثيرا وكاد أبى أن يبكى: يا ابنى حالك ماشى وأنا ملاحظ هذا بنفسى.

ـ ليس هناك فائدة.

ـ كان قد انتهى من شرب قهوته وتدخين سيجارته فقال: فيه انتخابات قريبة وافكر فى النزول فيها ما رأيك؟

ـ لو كانت بالطريقة التى ذكرتها فمفيش فايدة.

ـ أجل أصدقائى قالوا لى هذا لكننى مازلت أفكر.

قلت بعد وقت قضاه فى متابعة الملفات المستندة على رفوف الحائط.

ـ تعرف صبرى علوان أنه يعمل مديرا فى الشركة التى تعمل بها.

ـ بهت وتردد قليلا ثم قال : تعرفه؟

ـ من أعز أصدقائى.. إنه إنسان طيب ومؤدب، أجل حقيقى مؤدب.

ثم أستأذن وخرج وودعته حتى الباب.

ـ وعندما قابلت صبرى علوان فى المساء سألته عن ذلك الزائر فقال : إنه موظف الأرشيف يعمل بالإعدادية وهو المسئول عن توريد ورق الدشت لشركتكم لكنه يرتدى ملابس لا يرتديها رئيس الشركة نفسه. بزيادة سعر الدشت الوارد وأظنه قد أخفى القرار الوزارى الذى يؤيده فى تلك الزيادة حتى لا يتعامل معى ثانية وجها لوجه. هل خجل منى عندما أحس بأن صبرى علوان ـ صديقى سيكشف لى حقيقة عمله وأنه ليس مديرا كما يدعى . أم أنه ترك الشركة تماماً ليتفرغ للانتخابات القادمة؟

الخلاص

استطعت أن أبتعد عن التفكير فى المواضيع التى تخص الشركة التى أعمل بها بصعوبة.. لابد أن أعطى بعض الوقت لهوايتى.. أمسكت الكتاب وقرأت . لم أستطع أن أركز.

يأتى صوت صلاح الذى يعمل معى فى القسم الذى أرأسه الآن، يتحدث عن ثمن السيارات.. الـ بى أم دبلو التى زاد ثمنها عشرة آلاف جنيه هذا الشهر. هو يهوى السيارات. يتمنى أن يمتلك واحدة منها. لذا اشترك فى دورة لتعلم قيادة السيارات. وبدأ فى ادخار بعضا من دخله شهرياً لهذا الغرض.

تضحك صفاء بصوت مرتفع. لا أدرى على أى شىء تضحك. ربما أن سعيد قال نكتة. فهو دائم قول النكت. أو لعلها وجدت شيئًا فى الملفات التى تعمل بها يدعو إلى الضحك. على أى حال فصفاء تضحك لأقل شىء، أحياناً بسبب اسم غريب لعامل أو عاملة فى الشركة. أو لعدم تناسق الملابس التى يرتديها المتعاملون معنا.

شعرت بالضيق لأنى انصرفت عن الكتاب الذى أحاول الانتهاء منه منذ الصباح. لم يتبق فيه سوى صفحات قليلة.

كنت أجلس معهم فى الصالة الكبيرة. لكننى تحدثت مع رئيس الشركة عن ضرورة أن تكون لى حجرة خاصة بى بصفتى رئيسا عليهم . لم يكن الرئيس متحمسا، لذلك قال:

ـ آه تريد مكانا لتقرأ فيه براحتك.

قلت أشياء كثيرة أبرر بها موقفى. ادعيت أن ذلك من أجل مصلحة العمل. إذ لابد من التركيز حتى لا أخطئ، والتركيز لابد له من هدوء والهدوء لن يكون إلا فى حجرة خاصة.

الرجل ضاق بى فصاح غاضبا:

ـ اعمل اللى أنت عايزه

يتوافد المتعاملون معنا طوال اليوم. بحارة يعملون فى السفن التى تمتلكها الشركة. وموظفون فى الفروع المتعددة فى الأقاليم. يأتون للسؤال عن مستحقاتهم التأمينية. أحدهم يريد أن يضم مدة سابقة، حيث كان يعمل فى شركة ملاحة أخرى. أو يأتى أهل المتوفى لاستلام الشيكات الصادرة لهم. تمتلىء الصالة بهم وتضيق . لدرجة أنهم لا يجدون مقاعد خالية للجلوس فيضطرون للوقوف فى مدخل الصالة وبين المكاتب، ويتحدثون حتى أكاد أختنق.

كان لابد من البحث عن مكان عادى ألوذ به من هذه الضجة. لم أجد حجرة خالية فاقتطعت الجزء الأخير من الصالة المجاورة للنافذة وفصلته عن باقى الصالة بحاجز من الخشب.

أعرف من جلستى فى هذا الركن ما يحدث فى الجزء الباقى. أسمع صوت احتكاك الأحذية فوق الدرجات إن كانت الأقدام كثيرة أم لا . بل أستطيع أن أميز إن كانت الأقدام لعاملين منا فى الشركة أم لأهل منتفع جاءوا للسؤال عن مستحقاته.

دقت صفاء على الآلة الكاتبة. وسألت صلاح عن كلمة لا تعرف قراءتها من الورقة التى تنقل منها. وضاع الموضوع الذى أقرأه فى الكتاب . وتصاعد صوت احتكاك الأحذية فوق الدرجات الملساء. حددت نوع الأقدام والأحذية إن كانت حريمى أم رجالى . طويت الكتاب وانتظرت فقد تشتتت أفكارى ولن أستطيع فهم شىء مما أقرأه .

صالح إبراهيم ـ أحد العاملين فى الشركة ـ صوته مميز مبحوح وبه خنفة صغيرة.

ـ هؤلاء ورثة المرحوم إسماعيل أبو الحسن.

يعمل إبراهيم فى السكرتارية. مكتبه فى الدور الأرضى. لكنه يشارك صلاح فى هواية حب امتلاك السيارات يأتى كثيرا إلى مكتبنا ، يتحدث عن أحدث الماركات وعن نوادر السيارات وحوادثها، يلصق على مكتبه صورا لأحدث الماركات فى العالم.

سمعت صوت احتكاك المقاعد بما يعنى أن الموجودين كثيرون لدرجة أن المقاعد الكثيرة الخالية غير كافية لهم.

أسرع سعيد إلى مكتبى:

ـ آسف ، بعد إذنك مقعدين ...

لم يكمل ، أمسك مقعدين وأسرع بهما.

اضطررت أن أخرج إليهم ، فإسماعيل أبو الحسن ـ الذى جاءوا لصرف مستحقاته التأمينية ـ كان يعمل معنا. يقف بسيارته أمام مبنى الإدارة ، يذهب بنا إلى المكان الذى نريد الذهاب إليه. ويصعد إلى مكتبنا . يضحك مع صلاح ويشترك معه فى الحديث عن السيارات ، فهو سائق الشركة منذ وقت طويل. معروف ببخله الشديد. يسأل سعيد سيجارة. أو يجلس بجوار صفاء لكى تعطيه سندوتشا. وإذا ما كانت له نقود: مصاريف سفر، أو مكافأة، أو إضافى . يلح ويسأل فى اليوم عدة مرات ولا يرتاح إلا إذا صرفها .

صافحت زوجته . كانت نحيفة بشكل ملحوظ، والحزن باد عليها، متشحة بالسواد من أولها إلى آخرها حتى غطاء الرأس كان أسود.

وصافحت امرأة أخرى تميل للامتلاء قال إبراهيم:

ـ أخت المرحوم :

ـ والباقيات كن بناته. قلت مجاملاً:

- المرحوم كان عزيزًا علينا.

زوجته مازالت تبكى . تمسح دموعها بمنديل فى يدها من وقت لآخر. وابنتها الكبيرة تربت على صدرها لتسكتها . وأخته تتابع الجميع بنظرة محايدة ، لا تستطيع أن تستشف منها شيئًا .

طلب صلاح منهم بعض الأوراق لينهى الإجراءات. صور البطاقات الشخصية، وصور شهادات الميلاد للبنات الثلاث.

كان صلاح يتحدث مع ابنته الكبيرة التى يبدو أنها على قدر من التعليم. فقد تفهمت أقواله. ووعدت بالحصول على الأوراق المطلوبة. على أن تأتى إليه فور الحصول عليها.

* * *

كنت أجلس وقتها على مقعد أمام مكتب صلاح. اليوم مكتظ بالعمل. لن أستطيع أن أقرأ كلمة واحدة فى الكتاب الذى جئت به معى. فلابد من الانتهاء من استمارة الحصر الشهرية التى نرسلها إلى هيئة التأمينات فى موعد أقصاه يوم خمسة فى الشهر. كنت أباشر العمل بنفسى لننتهى. ودخل زميلنا إبراهيم الذى يعمل فى السكرتارية، نفس الوجوه: زوجة المرحوم إسماعيل أبو الحسن وأخته وبناته. هن يعرفن إبراهيم ويذهبن إلى بيته القريب من بيتهن إذا ما احتاجن لشىء من الشركة.

جلسن أمامنا . اصطدمت عيناى بعينى زوجته . هى ليست عجوز . فى وجهها ملاحة ، وفى عينيها وهج وجرأة. لاحظت أن

غطاء رأسها الذى كان مشدودا ومحبوكا على الرأس فى المرة السابقة، بدا منسدلا قليلا فأظهر شعر رأسها الناعم الأصفر من أثر الحنة.

كنت قلقاً ، أريد أن ينتهى صلاح من أوراقهن لتتفرغ لعملية الحصر التى لا نستطيع أن نتأخر عليها.

نادى صلاح على الزوجة. فسارت بخطوات بطيئة. انحنت فوق مكتبه. قال:

- هذا الشيك قيمة المكافأة النهائية.

قالت بصوت خافت مرتعش:

- كم؟

- عشرة آلاف وخمسمائة و ...

بدت مندهشة . وسألت :

- كم؟

أعاد صلاح عليها ما قاله. وتدخل إبراهيم -جارهن - وشرح لها، فابتسمت . وأكمل صلاح:

- هذه شيكات المعاش . ثلاثة كل واحدة بسبعمائة وخمسة وثمانين جنيها.

قالت فى دهشة أكبر :

ـ كل شهر سأقبض مبلغا مثل هذا؟

ـ نعم . من مكتب البريد القريب من بيتك.

اقتربت الأخت لكى تأخذ الشيكات التى تخصها. والبنات الثلاث وقفن خلف الأم. وإذ بها تطلق زغرودة عالية مبتهجة بما حدث.

ظننتها أول الأمر قد جنت . وأسرعت البنت الكبيرة إليها:

ـ أمى . أمى . ماذا حدث لك؟

دفعتها الأخت غاضبة:

ـ زوجك ميت وتزغردين؟!

وإذ بالزوجة التى كانت هادئة، تدفع الأخت بيديها وهى تصيح:

ـ يا شيخة روحى . هو احنا كنا بنطول مبلغ زى ده فى حياته. ده كان مجوعنا وحارمنا.

ضحكت صفاء بصوت مرتفع. وارتبكت البنات . والتففن حول الأم ليسكتنها . وصحت فى صفاء لتسكت بينما خرجن جميعا. الزوجة والأخت تتشاجران ، والبنات حائرات بينهن . وإبراهيم يتحدث معهن.

والبنت الكبيرة تنظر خلفها ، تتابعنا فى خجل.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٦٢٤ / ٢٠٠٣

I. S. B. N 977 - 01 - 8549 - 3